طريق المعرفة

جنون الأمومة الطبيعي

جاك اندريه وآخرون

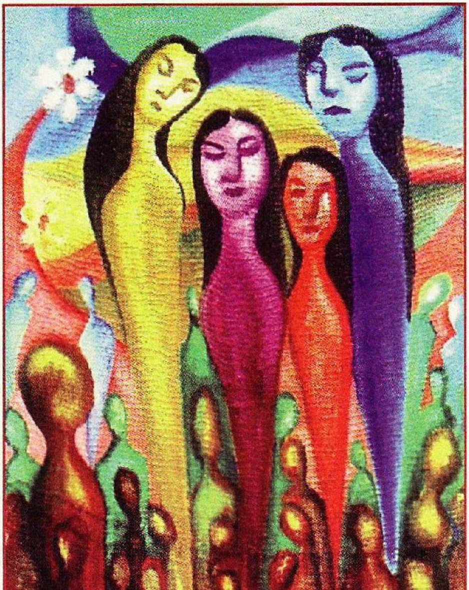

ترجمة

اسكندر معصب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1430 هـ ـ 2009 م

"ouvrage publié avec le concours du Ministère français
chargé de la culture- Centre national du livre"

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام ـ ص.ب. 113/6311
تلفون 791123 (01) ـ تلفاكس 791124 (01) بيروت ـ لبنان
بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb
contact@editionmajd.com
http:// www.editionmajd.com

ISBN 978-9953-515-52 -6

طريق المعرفة

جنون الأمومة الطبيعي

لـ جاك أندريه وآخرون

ترجمة

إسكندر معصب

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

هذا الكتاب ترجمة :

SOUS LA DIRECTION DE

Jacques André et Sylvie Dreyfus-Asséo

La folie maternelle ordinaire

© *Presses Universitaires de France*

I ـ مقدمة

جاك أندريه

القبلات

«من قصص الأمثال ـ حين وجدت امرأة قبيحة جداً، عشاً لعصافير صغار، اقتربت منه، يغمرها الفرح. كانوا بعمر الطيران ولم تتمكن من الإمساك إلا بأصغرهم. فأخذته بين ذراعيها، تغمرها البهجة وعادت إلى كوخها، وما أن بدأت بالنظر إليه حتى راحت تقبله. وبسبب حبها الجارف الذي كانت تكنه له، قبلته وأدارته وضغطت عليه بشدة حتى جعلته يفارق الحياة.

تستهدف هذه الأمثولة أولئك الذين يجلبون مكروهاً لأنفسهم لعدم تربية أولادهم بصورة مناسبة».

ليوناردو دافنشي، Codex Atlanticus
Folio 67 r-a

هذه الأمثولة لـ «ليوناردو دافنشي»، والتي استوحتها مباشرة «بلين لانسيان»، تسبق بفترة وجيزة، في الـ codex ذكرى طفولة حِدأة: «لازالت في المهد، نزلت الحدأة نحوي، وفتحت لي فمي بذيلها، وصدمت لعدة مرات شفاهي بذلك الذيل» مقاربة الأمثولة بالذكريات ـ تلك التي ذاع صيتها نتيجة لتحليل فرويد لها[1] ومما زاد في أهميتها أيضاً المساهمة المبتكرة الوحيدة التي أجزاها ليوناردو لقصة «بلين» تكمن في إحلال عصفور صغير محل قرد صغير.

وعندما تعرفنا الترجمة أن فرويد اقترح عن أمثولة الذكرى: «جذبتني أمي إلى فمها وراحت تقبلني قبلات شفوية شغوفة لا تحصى»، وعندما نعلم بحساسيته الخاصة تجاه الحب الذي يربط الأم بأصغر الأبناء، ليس في وسعنا إلا أن نعبر عن دهشتنا، مع «دانييل آراس»[2]، الذي أهمل هذا التثبيت، الذي لا جدل فيه، لترجمته. فجنون كاتارينا وإحساسها الجنوني، وحبها الجارف لـ ليوناردو، ابنها، ليس الصورة الأولى للجنون الأمومي[3] في عمل فرويد، بل هو مع ذلك تصويرٌ متميزٌ.

(1) Un souvenir d'enfance de Léonard de Vinci 1910, Paris, Gallimard 1987.

(2) Léonard de Vinci, Paris, Hazan, 1997, p. 488 sq.

(3) De la «folie privé à la folie maternelle», André Green a beaucoup fait pour rendre son lustre à ce mot oublié par la nosographie.

أولاً بقوته، وبإسهامه في عبقرية الإبن الخارقة ـ هل يمكن للمرء أن يصبح نابغاً دون أن تكون له «أم مجنونة»؟ ـ إنما أيضاً الدرب الذي تهتدي به، هو الدرب الذي يقودنا إلى حكايات الجنون الإعتيادي، الجنون العام، الذي لا يفلت منه أحد. المسألة أن «كاتارينا» تبالغ، لا شيء من ذلك.

وهنا تضيف كاتارينا، الأم بصورة عامة، هي «الطيبة بما فيه الكفاية»، بما فيه الكفاية تماماً، وإذا كان أقل فهو أيضاً كثيراً: «فحب الأم لرضيعها الذي ترضعه وترعاه، كما يكتب فرويد، [علينا تدوين هذا التمييز، كما لو أن الإرضاع ليس مجرد رعاية]، هو شيء له عمق أكثر من الحنان اللاحق للطفل المراهق. حيث يمتلك هذا الحب طبيعة علاقة غرامية يملؤها الإشباع، والذي لا يشبع فقط جميع الرغبات النفسية بل جميع الحاجات الجسدية أيضاً، وهو يمثل أحد أشكال السعادة الممكن حصولها للكائن الإنساني، وهذا لا ينشأ لأقل قسط من إمكانية الإشباع دون ملامة اقتراحات الرغبة المكبوتة منذ أمد بعيد والتي يصح اعتبارها فاسقة»[1] وهنا ندرك إصرار «جان لابلانش» على نص مماثل يدع الأولية للأمومية الأخرى في التكوين الجنسي الطفولي. والشيء المهم أيضاً في ملاحظات فرويد، وأولاً فكرة أن هذا الحب الأول لا يتوجب أن يكون

(1) Freud, *Un souvenir*, op. cit. , p. 146

شديداً، بعمقه وبتعددية أشكاله الجنسية لحالات الحب اللاحقة، على العكس تماماً. ومن هذا العمق يحتفظ الفتى الرجل بآثار ذلك، بل بجرحه، وهو التعبير الذي يجد صداه الميثولوجي في التخيل الوهمي لـ «تيريزياس» وهو في عقيدة النزوع الجنسي الأنثوي الفائق الحد والمحال إشباعه، حيث يشكل قلق الأخصاء أحد أقوى دوافعه. وفي معظم الأحيان يكفي المرأة من أجل ذلك أن تتقدم على غيرها كأم الأيام الغابرة.

وبخصوص هذا النص لفرويد، قرأت مؤخراً هذا التعليق: «الإستمتاع (لأم الرضيع)، بلا ملامة، وبلا شعور بالذنب، يصفها تماماً بالفاسقة»[1].

هذا التغيير في خطاب فرويد، على ما يبدو فيه من الرشاقة، يبدو لي أنه يعيد معنى عكسياً حقيقياً، الناقل والموجه فيه هو كلمة «فاسقة» لعل غياب الشعور بالذنب في النزوع الجنسي الفاسق علامة على عدم وجود عائق الكبت. وبالطبع، لاشيء من هذا لدى أم الرعاية الأولى وحالات الحب الأولي، المنفية من حاجز الكبت وبطريقة ما، على العكس. فالمتعة التي تحصل عليها والتي تمنحها عند تغيير ملابس الطفل، لا تلغي في

(1) Anne Minthe, «Un avatar de l'invention du féminin», in *Invention du féminin*, Campagne première, 2002, p. 113.

شيء اشمئزازها من الغائط،، والتي من ناحية أخرى يحافظ عليها كما هي. وبالذات هذا الحفظ للكبت هو الذي يسمح لـ «براءة» وللتنكر من الميل الجنسي الذي يمتزج بأفعال الرعاية. ويصبح الأمر محسوساً بصورة خاصة حينما يتأرجح الكبت. مثل تلك الأم للطفل الذكر، الملزمة بالعمل الهاجسي، والتي تشعر بالدوار على الأريكة عندما يتطلب تمرير يدها على القضيب وقت التنظيف، هل يجب أن تنظف أكثر أم تكتفي بالتمرير؟ وعندما يدفعها انتصاب الرضيع على الابتسام بمعزل عن الكبت، يستدعي درجة من القلق (والشعور بالذنب) لدى تلك التي يهددها جنون الشك.

إن كانت هنا كلمة «فاسد» هي الباعث على التشوش، فلأن لها المعنى نفسه الذي يعود للنزوع الجنسي الطفولي أو للمنظومات الجنسية الراشدة. وعندما تكون المرأة الأولى متعددة الأشكال، وتستفيد من مرونة الدافع للمرور بجميع السيناريوهات وبتعددية الأهواء التخيلية، فالمرأة الثالثة تحصر الحياة الجنسية في الأغلال، ومن دون تحريك لأي باعث جنسي، وضمن برنامج يخضع الهوى التخيلي بصورة حرفية. وماذا يُقال عن الأداة، في الانحراف الراشد، إنه بكل بساطة متغير ولا مبالٍ. عندما أداة حب الأم لطفل حديث العهد تكون وحيدة بقدر ما تكون عسيرة على الاستبدال. مما يدل على الأسى لموت الطفل المستبدل بأطفال الاستبدال ولا يقومون

بذلك أبداً. والتحدث عن «الغلمانية الأمومية» للدلالة على هذا الإغواء الجنسي الطابع يبدو لي غير كافٍ، للأسباب نفسها. فالغلمانية هي في انتقال من طفل إلى آخر، بغض النظر، إنما ليس الأم. ويمكن حتى أن ندعم ذلك بفكرة أن الأم حين يستولي عليها الإلزام المنحرف، بالمعنى الراشد للعبارة، وما يُشكّل هنا هو تكوّن النزوع الجنسي الطفولي للطفل، وعندئذ لا حول لهذا الطفل ولا قوة إلا في سلوكه التماهي مع المعتدي، ما لم يقتبس مسالك أكثر ظلامية أيضاً.

وبلا شك، ينبغي تصور أن عمق الحب هذا بلا منازع وتشركه الأم مع عمليات الرعاية الأولى، ويحرك فيها من جديد طفولية النزعة الجنسية، بجميع إمكاناتها. والنزعة الجنسية التي تمنحها، بصفتها راشدة، تقتبس من ذهن المراحل التمهيدية أكثر مما تقتبس من الفعل التناسلي. كان «ميشيل سوليه» يراقب فيلماً وثائقياً حول علاقة الأم بالطفل، فإذا حجبنا الصورة وأبقينا الصوت (كي نتخيل الأصوات بيسر)، فلا شيء يختلف عن فيلم جنسي[1]. إن بعد الموجود والمبتكر، واللذان جدد بهما «وينيكوت» مقاربتنا لازدواجيات: الداخل والخارج، التكوين الداخلي والتكوين الخارجي، الفاعل والأداة، يمكنها تماماً أن تخص النزوع الجنسي الطفولي برمته. فثدي المتعة الذي

---

(1) In L. Kreisler, M. Fain et M. Soulé, L'enfant et son corps, Paris, PUF.

يكتشفه الطفل (infans) هو أيضاً كل ما يسعى لأن يجعله ينزلق بين شفتيه.

نادرة هي الفرص لدى «فرويد» التي قيّم بها مسبقاً وجهة النظر هذه الداخلية الذاتية، حتى ولو فكرة الأم كمثير أول للإغواء نعثر عليها هنا أو هناك في مؤلفاته مثل «l'Abrégé» أي الموجز. والمصادفة الأولى نجدها في كتابه «التجارب الثلاث. . Les Trois essais»، مع نبرة رشيقة مختلفة. هناك جملة شهيرة له،يستوحي فيها الأم التي تداعب وتهز وتقبل طفلها: «اتخذته بكل وضوح كبديل عن أداة جنسية تؤخذ برمتها على حدة»[1]. لا شيء يلزمنا بترجمة هذه الكلمات بمعنى العبودية (fétichisme) الأمومية، فالترجمة تسمح لنا باعتبار هذا الطفل كـ«أداة جنسية تؤخذ برمتها على حدة»، والعضو الانتصابي مأمول جداً. وتؤكد العيادة السريرية بصورة خاصة، إذا كان من الضروري، أن الإيعاز الموجه للطفل، سواء كان ذكراً أم أنثى، يحقق البرنامج الانتصابي الأمومي. في تحقيقه أو تفويته. والتخيل الوهمي المخصي نادراً ما يفوته مضاعفة الهيام الظاهر. «أمي مجنونة» هذا اليقين مفروض على هذا الرجل، الذي كان مراهقاً، أمام مشهد كان قد اكتشفه عند دخوله إلى غرفتها، رافضاً ارتداء السراويل الخسيسة الفضفاضة التي اشترتها أمه له، فلقد قُدم له سروالاً حقيقياً، قصيراً ولائقاً،

---

(1) Trois essais sur la théorie sexuelle (1905) Paris, Gallimard. 1987 p: 166.

مبرزاً بوضوح الرسالة التي وجهها إلى الفتيات. وإلى رفاقه من نفس العمر. السروال كان معروضاً بعناية على السرير، والجزء الذي يخفي أو يعرض العضو الجنسي مقصوص بالكامل.

وليكن الأمر مألوفاً، هذه الصورة للعبودية (fétichisme) الأمومية لا تدري إدعاء الكلمة الأخيرة، لا الأمومة ولا الجنون. ونعلم أن الشرح التالي، في مسار المساويات الفرويدية (البراز، ذكورة الطفل) عند «لاكان» وبصورة واضحة أكثر عند «غرانوف وبيرييه» في مؤلفهما «الرغبة والأنثى»[1]. أولية العضو الانتصابي هي نظرية جنسية طفولية، وهذا لا معنى له إطلاقاً إذاً في دعم الحقيقة أو تكذيبها، إنه، بالمقابل، صعوبة موافقته على عمومية النظرية التحليلية. هذه النظرية التحليلية النفسية الطفولية ليست بلا ارتباط مع الجنون الأمومي، وهي هذه المرة، انفرادية عند فرويد، أو بالأحرى «سيغموند»، ابن «أماليا»، عندما خلق هذه الشخصية لأقل توقع ممكن، الأم تجهل التناقض الوجداني، الأم مجنونة ابنها. حيث يكتب ويقول: «كل علاقة عاطفية حميمية، تشتمل على مستودع من المشاعر الرافضة، والعدائية»، باستثناء العلاقة النرجسية من الأم إلى الابن[2].

---

(1) Paris, Aubier, 1979.

(2) «Psychologie des masses et analyse du moi» (1921), OCF, XVI, Paris, PUF, 1991, P. 39, n.

شخصية الأم التي بالكاد أن تكون متماسكة هي «المهيّج الأول»، إنها هي التي توقظ الدافع الجنسي لطفلها، ويريد فرويد أن يطمئن نفسه بالقول بأن الأم غير عابئة، وإنها لا تقوم إلا «بواجبها». وخارجاً عن هذا الدرس في الحب، قد لا يعلم الطفل «أنه أصبح كائناً إنسانياً جديراً، ومزوّداً بحاجة جنسية تحمل الطاقة، ويحقق في وجوده كل ما يحث الدافع الفرد عليه»(1) والحجة الثانية ستذكر المر بصورة حاسمة أكثر: «إيروس» هكذا هي الحياة. فهناك جنون أسوأ من الإغواء «هو الذي يولد من غيابه».

لقد أتينا على تغيير الرضيع والأم والجنون.

تعرض «إيستير» هذه المفارقة لشخص ما، فبدون أساسيات التحليل وبناؤها، يصبح العلاج بلا دعائم، وهنا ارتكز بصورة رئيسية على الجلسات الناقصة. ولمدة طويلة بدون معرفتها ومعرفتي. إنها تحتفظ دوماً بعلامة عن جلستها، باعتقادها أنها، إذا لم تأتِ على الأقل مرة في الأسبوع، فالخيط قد يتهشم. والخيط هو شيء يتعلق بالأنوثة، ويستدعي الكناية عن النسج، ليس لمجرد إخفاء الغياب، إنما أيضاً من أجل بنائه. فالنسج هو اختبار للزمن. وعندما لا تأتي «إيستير» في معظم الأحيان، لا تنذر أبداً. كما يحصل لها مرات تقرع

(1) Trois essais, op. cit. , p. 166.

الباب والجلسة شارفت على نهايتها، يستحيل أن تنذر في حال غيابها إنطلاقاً من تأخر حتى لو كان طويلاً. مما يلعب في منطق الإغواء دور «جعل الآخر ينتظر»، إنه يُنشِر هنا في سجل مختلف تماماً، لا مبالاة مطلقة بالزمن من ناحية «إيستير»، فالزمن هو ناحية نفسية ليست في ترتيبها. وكان قد أوحى «جاك أبراهام» بأن النساء يجعلن الرجال ينتظرون، إنه إجراء يحمل في طياته أفعالاً انتقامية: كالثأر من أولية الإنتصاب والذي يحكم عليهن في انتظار، الذي يسبق الفعل الجنسي. إنما ليس لأني أنا أنتظر «إيستير» بل رجل ينتظرها. أنتظر طفلة تجعلني أنتظر. وعندما نظام دفع أجرة الجلسات الناقصة يتعدى الواحدة، يكون بالنسبة لـ «إيستير» الترجمات الأكثر خصوبة. فالدفع يسمح للجلسة أن تنعقد، حتى لو لم تأتِ. وبالطبع بشرط عدم الإنذار: «قالت «إيستير» في أحد الأيام، لو حذرت فستصبح هذه الجلسات الناقصة لا ضرورة لها، فالجلسة لن تحصل». والترجمة الخصبة والصامتة يمكن أن تُصاغ هكذا: التغيب لا يعني الموت أو الزوال، إنه الإستمرار في الوجود. فألا يكون المرء حاضراً لا يجعله زائلاً، وألا يولد لا يلغي وجوده، فأحدٌ ما ينتظر، ينتظره، ويهمه غيابه نفسياً ويترصد مجيئه المحتمل. يكرر الترانسفير ما لم يحصل أبداً: نتوقع في الأفق أماً حاملاً في جسدها المتمنع، والمنشغلة نفسياً، في حين يفترض بها أن تمنح الحياة، بواسطة ميت «لم يجد قبره»، وفقاً للصورة الكئيبة لـ «بيير فيديدا».

وبعد الجنون الأمومي المتجاوز الحد، هناك الجنون غيابياً. ومع «ج. ب. بونتاليس» يمكننا أن نتساءل عما هو الأصعب بالنسبة للفتاة. قراءة الرغبة في عيون والدها والتي هي أداتها أم ألا تقرأ شيئاً[1]. بلا شك، المرأة الفارغة للنظرة الأمومية لا تصيب المكان نفسه ولا تصدر نفس التأثيرات، وسنتوافق، بدون صعوبة، على أن الوطأة الصادمة وصعوبة علاجها النفسي ليس أقل شأناً.

ولم يكن «وينيكوت» أول من طرح هذه التساؤلات على علم التحليل، نظرياً وعملياً، لكنه شغل في هذا الميدان وضعاً متميزاً. ودون أن أتخذ قراراً في ذلك، لاحظت أن مسار القصة التحليلية النفسية يرفق مقاصدي، كما لو أنها تدل على شيء ما لتحرُّك نكوصي للشيء ذاته. وما بين «فرويد» و«وينيكوت» هناك «ميلاني كلين» الأم المجنونة للتحليل النفسي. ولم يعترف فرويد بفضلها، لكنه حين اكتشف الحضارة «المينوميسنية» عام 1931، وكان ذلك بعد نشر كتاب (la géniale tripière) بنصه الحدث، «المراحل السابقة للصراع الأوديبي»[2] ومن ناحية أخرى، تكفي جولة على الأهواء التخيلية القديمة والتي أدرج فيها «فرويد» العلاقة الأولى للأم بالفتاة لكي ندرك أن ما بين «ميلاني كلين» و«ميسين» كثير من القواسم المشتركة. فالأم

(1) Ce temps qui ne passe pas, Paris, Gallimard, 1997, p. 13, n. 1.

(2) (1928), in Essais de psychanalyse, Paris, Payot, 1980.

الغاوية الأولى لفرويد هي إبنة «جوكاست»، وكلتاهما محميتان من التنصل والتنكر. والأم التقليدية لـ «ميلاني كلين» هي إبنة «ميديه»، بضوضاء وصخب. عندما إحداهما تختلس الحب، الأخرى تقتل.

ومن دون شك، كان ينبغي أن يُدفع عنف الواقع النفسي إلى أقصى حدوده لكي تتمكن مسائل الرعاية والهم الشاغل، والخاص أن تُستعاد بطريقة جديدة. وبعيداً عن الجنون الأمومي، ربط «وينيكوت» ثانية البساطة بالحالة الطبيعية. فالطبيعة الإنسانية عنده تُدعى «أماً متفانية اعتيادية» أو حتى «أماً طيبة بما فيه الكفاية». ويكتب: «بإمكانكم أن تتخيّلوا أن هذه الجملة أحياناً تنكدني من حيث فحواها، وهناك الكثير منها تفترض أني عاطفي في موضوع الأمهات، بحيث أضعهن بمنزلة المثالية، وبحيث أدع الآباء جانباً، وبحيث لا أتوصل لرؤية أن بعض الأمهات هن رهيبات حقاً، بل مستحيلات. وعلي أن أتدبر أموري مع العوائق الصغيرة لأني لا أشعر بالخجل لما تتضمنه هذه الكلمات»[1] وما تتضمنه هذه الكلمات هو، من ناحية، الضرورة الحياتية لكل طفل أن يسهِّل له أحدٌ ما في المراحل السابقة لأوانها لأطوار نمو الشخصية الإنسانية غير الناضجة كلياً والتابعة بصورة مطلقة، ومن ناحية أخرى،

(1) The Ordinary Devoted Mother, 1966.

قناعة أن الأم تُظهر، بطريقة اعتيادية وطبيعية، بيئة إنسانية طيبة بما فيه الكفاية، متكيفة، ومتلائمة لحاجات الطفل، بما فيها الحاجات العاطفية، فالحنان، هو يرفع وينمي التعلق، وليس وحده خاص بالإنسان. وبأخذه فترة في معزل عن الصراع النفسي، يشكل «وينيكوت» الأم الطبيعية بوصفها ثديية جداً، ويفضل عملها في أن تظل بعيدة عن النصائح والمطالعة، ويكفيه أن يسمع من على الأريكة صدى قراءات «لورنس بيرنو» أو أسوأ من ذلك، «فرنسواز دولتو»، لكي لا يضعها موضع الخطأ. فالأم الطبيعية منذ «وينيكوت» هي أم «بلا ثقافة» ومن البنت إلى الأم، ومن الأم إلى أم الأم، إلخ، يكتب «وينيكوت» عندئذ كلمة المرأة بأحرف كبيرة ويقول، المرأة لها مع الجنس البشري صلة لا يملكها الرجل، مما يؤكد ربما، إنما هذه المرة على العكس، على الصعيد الصراعي، النجاح الذي تلاقيه التقنية في إعطاء الـ ovocyte[1]، فالقدرة على الحمل، وأم لطفل حملته، وبفضل الفصل الوراثي والنفسي بـ la matrirlinéarité[2]، كل هذا لا يمنع الأم الشابة من الأسف بأن هذا الطفل ليس طفلها بصورة كاملة، إنما الثمن الذي تدفعه لئلا يكون من الناحية الوراثية حفيد أمها.

---

(1) خلية أنثوية للحيوانات غير خاضعة لمرحلتي نمط تقسيم الخلية الحية (المترجم).

(2) من لا يعترف بقراية السلف الأمومي.

تمتد الأم المتفانية الاعتيادية إلى الأم الرحمية الخفاء (من أم واحدة وأبوين مختلفين) الأم الرابية التي تتابع خارجاً ما بدأت به في الداخل. وأن يظل ذلك اعتيادياً، أو تماماً بما فيه الكفاية، يوضح تماماً أن ذلك لا يخلو من حرمان للطفل، ويلاحظ «وينيكوت» أن الأم لا تمهله. هذه الأم هي أقل عكسية من الأخرى الراديكالية الأم الكلينية (نسبة لـ ميلاني كلين)، ويتكوَّن كل ذلك برمته بمجموعة الإسقاطات التخيلية الوهمية التي تكون هي الأداة.

وأن يكون هذا المقطع من الطبيعة إعادة بناء، يتكفل «وينيكوت» نفسه بالدلالة عليه. ومع هذه المرحلة، على سبيل المثال، والغريبة قليلاً، لا بل المحزنة: «تعجز أي أم 100% عن إصدار طفل حيٍّ كامل في أهوائها التخيلية»[1] إنه مبدأ وينيكوتي، مقارب ومفارق في آن واحد عن مبدأ «الأم المتفانية الاعتيادية»: «الهم الشاغل الأمومي الأولي» يسمح لها لوحدها في أن تقيس هشاشة مقولة الطبيعية. وتخف الأنظار هذه المرة عن الطباع المتكيف مع مهام الرعاية، وتوجه هذه الأنظار على مداها في تحديد الهوية. فالتماهي بصفته القدرة على تحديد الهوية الذاتية لا يكفي أيضاً لإخراجنا من السجل الحيواني، وقد أشار بما يكفي علم الإيثولوجيا (لورينز) أنه يمكن للمرء أن

---

(1) «Note sur la relation mère- fœtus» (1966), in La crainte de l'effondrement, Paris, Gallimard, 2000 p. 174.

يكون دابة كإوزة ولا يكون مجرَّداً منها. إنما لأن التماهي طور نفسي برمته، يقدم للنزعة الصراعية مدخلاً، ودعماً موجودان تماماً. إذاً، يصف «وينيكوت» حالة الحساسية القصوى، مع مسه مساً خفيفاً للهاجسية، التي لا تنفصل من جسد إلى جسد الأم والطفل خلال المرحلة التي تبدأ من المراحل الأخيرة للحمل وحتى الفترات الأولى من الولادة، حالة لا تسمح للأم في أن تتماهى، كما لا يستطيع أي إنسان فعل ذلك مكانها، وهذا يعود للطفل الذي يدخلها التجربة. «هذه الحالة المنظمة، والتي لا تعتبر مرضاً، ليست الحمل، كما يلاحظ «وينيكوت»، ويمكن أن تُقارن بحالة انطواء، أو حالة انفكاك أو فرار، أو حتى أيضاً اضطراب عميق جداً، كمرحلة فصامية»[1]. وإن لم يكن ذلك الجنون فهي قريبة منه. ومن ناحية أخرى، سيتناول «اندريه غرين» الفكرة مستوحياً من «الجنون الأمومي الطبيعي» مضيفاً لوصف «وينيكوت» إصراراً خاصاً على كلية القدرة النرجسية للأم التي تسم تلك الفترة[2]؟

التفكير المنطقي الذي يعطي قيمة للإغواء النسلي، هو الذي يمزج، بصورة لا مناص منها، أمور اللاشعور بأعمال

(1) «La préoccupation maternelle primaire» (1956), in De la pédiatrie à la psychanalyse, Paris, Payot, 1969, p. 287.

(2) «Passions et destins des passions», in Nouvelle Revue de psychanalyse, nº 21, Paris, Gallimard, 1980 p. 33.

الرعاية، وينطبق كذلك على هذا الهم الشاغل الأمومي الجنوني «والطاقة الكبرى عندما يحدث تشويها». وإنما، عندما يفتح فوات الإغواء الأمومي الفرويدي بصورة تفصيلية، المخارج العصابية والمنحرفة، مخارج الهم الشاغل الجنوني، تميل أكثر نحو الحالات الذهانية.

وكأي بناء نفسي تأملي، يجعل «وينيكوت» بناءه عرضة للنقد. ونتذكر الطريقة التي حلل فيها «ليفي ستراوس» أسطورة الطفل المتوحش، والتي قامت على وهم إمكانية اتخاذ شيىء ما من الإنسان قبل أي أثر ثقافي. فـ«الطبيعة» ليست ذلك الموقف الأصلي الذي يظهره البشر، والذي يُحتمل أنه تهيأ في العصر النيوليتي (مرحلة ما قبل التاريخ عند صقل الحجر وبدء الزراعة)، ومبدأ الطبيعة هو بحد ذاته ثقافي. وما يعادله في الحالة الاجتماعية، يتعلق بالصلة الأولى مع الغير ونعني بها علاقة الأم بالطفل. ومثلما هناك وضعيات للمائدة وللسرير وللتواصل، هناك أيضاً وضعيات للحمل والوضع وتربية الطفل. هذه الفترات من «الطبيعة» والتي تكون فيها فترتا الحمل والبلوغ بعيدتان عن الانطلاق من الذات، بما قد يتلاءم مع ما هو «طبيعي»، وبالنسبة للأطوار الجسدية، يفرض الجسد، بلا ذاتية تحولاته بلا رحمة، ويشكل الحمل والوضع كما نعلم فترتين من الهشاشة القصوى بالنسبة لـ «بسيشيه» التي لم تجد أمامها أحياناً حلولاً أخرى إلا أن تبني تدابير جذرية كالعقم تجاه الحمل، ورفض التغذية تجاه البلوغ.

ومع ذلك لا يهمني نقد «وينيكوت» بقدر ما يهمني اكتشاف أصالة وجهة نظره وغناه الـ(كشفي المنهج) heuristique. فالصورة المشوَّهة الأمومية لـ «وينيكوت»، ليست مغلوطة بالكامل، إنها تساهم بمحو، وبلا شك بكبت، ما يفعله العنف الكلامي وفكرة إمكانية وجود علاقة بين الأم والطفل (أو الإبن على حد قول فرويد)، والتي تستثنى من التناقض الوجداني قد لا تعود لـ «وينيكوت» بل ندين له، على خلاف ذلك، بتطورات ملفتة للانتباه حول ما يدعوه «كراهية إسقاطية» من الأم نحو الطفل. ولن أتناول تعداد أوجهها، إنما تذكير موجز، فالأم تكره الطفل لأنه ليس طفل لعب الطفولة، ولأنه شري، ويعاملها من مبدأ أنا القليل أفضل من لا شيء، وخدمة واستبعاد بلا أجر، فهي تكرهه لأن عليها أن تحبه، به وببرازه وبكل الأشياء الأخرى، وبعد فترة صباحية شنيعة معه حيث قد تودي به إلى الشيطان، تخرجه فيبتسم للغريب فيقول: «كم هو لطيف»، إنها تكرهه لأنها تعلم أنها لو سببت له تشويهاً في البداية لجعلها تدفع الثمن إلى الأبد، وأخيراً هي تكرهه لأنه يهيجها ويحرمها، وعليها ألا تأكله ولا أن تغامر جنسياً معه»[1] هذه الأم التي تكره، لا تعتبر أماً خارجة عن الطبيعة، وليست كالخالة الشريرة زوجة الأب، إنها أم اعتيادية مكرِّسة نفسها.

---

(1) «La haine dans le contre- transfert» (1947), in *De la pédiatrie à la psychanalyse*, op. cit. , p. 80-81.

ولعل كراهية الأم هي الكراهية الأولى قبل أن يمتلك الطفل الوسائل النفسية التي تجعله يقابل الشر بالشر. ومن السهل اكتشاف مؤشرات نعثر عليها لهذه الكراهية الموضوعية في الموقف التحليلي، حيث للمحلل النفسي مرضى آخرون وهو يضع نهاية للجلسة ولا يجيب عندما يُسأل، ويُوجه له النقد ويحلل ما يسمع ويقوم بمهنته.

وعند ما يبسّط «وينيكوت» بشكل عام موضوع «الطبيعة الإنسانية» يخاطر باستبطان إفرادية مقاربته، والتي لا تنفصل عن التجربة حيث تتخذ مصدرها منها، والتحليل النفسي للمرضى، الذي يتعلق بشيء ما كالذهان أو حالات القلق، يعني بشكل دقيق أناساً يخضعون للتحليل تنقصهم «الطبيعة». أقتبس من ذلك توضيحاً موجزاً. كيف نفهم أن أصغر الأولاد يصدر عنه هذا المخرج المرضي الشديد، مرض الامتناع عن الطعام، بصورة محتملة، لدرجة المخاطرة بالحياة؟ ويقول أنه في هذه الحالات يصبح الإشباع الفموي ظاهرة منفصلة، أو نوع من «الإثارة». والشيء المهم بالنسبة للطفلة عندئذ هو ألا تأكل، وتتملص من الإثارة، وحتى لو كانت تحتضر، فهي موجودة آنئذ بصفتها فرد[1]. إنه العالم المعاكس، حيث يرفض

(1) Lettre du 15 avril 1966 (à L.E. Peller), in *Lettre vives*, Paris, Gallimard, 1989, p. 213-214.

تغذية نفسه لإرساء الحاجة، فمرض الامتناع عن الطعام هو من أجل الإفلات من الجنون الفموي، ومن أجل العثور على طبيعة تجابه الشحنة الدافعية. وليست الطبيعة هبة تأسيسية، إنها هدف يجب تحقيقه، وأحياناً ترميمه، وبلا شك في معظم الأحيان ابتكاره. فالطبيعة يستهدفها التحليل، والتحليل كعلم البيئة يسعى لإنقاذ جنس في طريقه إلى الانقراض وهو يبني منظومة البيئة.

«أتاليا» الأخت التراجيدية لـ «إيستير» مريضة تحت التحليل بمرض الامتناع عن تغذية الذات، ليس في الحياة بل حتى وهي طفلة حاولت تجربة ذلك، وهي مريضة الامتناع عن التغذية في الموقف التحليلي، وترفض الغذاء الذي أقدمه لها، وعندما سألاحظ ذلك فجأة سيكون مرض الامتناع عن التغذية قد أشرف على نهايته. وهي تمنعني عن الكلام بتكلمها طيلة الوقت، دون أن تترك أي مجال قد يمكنني من التحدث به. ولا أتمكن من الكلام إلا بمقاطعتها عن الكلام أو الشهية. أتاليا: «هذا ضبابي مبهم لا بل على الأجدر مظلم أو مضطرب، لا غامض. . .» ولاحقاً، سيأخذ هذا البحث تقريبياً معنى: إمساك الكلمة الصالحة، التي تأخذ الفكرة دون اللعب بمخاطرة الوقوع بالانزلاق. لكن المحلل الذي لا يأخذ ذلك بمحمل الأهمية يقوم بمهنته بتجربة الخطأ، ويثرثر، فتقول له، «أنت آلة للترجمة». والجملة التي تكررت عدة مرات ستبقى

أحجية لوقت طويل. وتبدو «الآلة» تندد آلية، تبدو جملة «أتاليا» رافضة لأوتوماتيكية ترجمة أعترف فيها بسوء تدخلاتي الهزيلة. وليس إلا بعد صدمة، وكلما بنت الطبيعة كلما اكتسبت ثقة وطيدة باستمرارية وجود التحليل، وبالتحويل إلى صورة أو إلى مشهد حيث سيصبح اللغز حكاية. إنها في مطعم مع صديق أو صديقة. وتريد منه أو منها أن يتذوق الطبق الذي لم تختاره هي نفسها، ويوجه ضيفها لها الشوكة، وبصورة مباشرة نحو الفم. وتثير التذكر البسيط للحركة قليلاً من القلق. المحلل النفسي الناقل لن يقوم بشيء آخر لفترة طويلة، إنه يدخل لها هذا التضاد الذي تدافع به عن نفسها. وليس ثمة ترجمة متعلقة بالموضوع في النهاية، تدع التحليل يكسب بصورة طبيعية، وأيضاً بفاعلية أقل، وهي فاعلية تعويضية بقدر ما هي محاطة بالرعاية ـ يوحي «وينيكوت» من أجلها، السؤال عن الترانسفير المضاد ـ، لكن استمرارية، وثبات النص المنطوق، هي روح المحلل المدركة.

إن إدراك الطبيعة، وإنجاز شكلها على الأقل... مرحلة من علاج «أتاليا» يكون فيها التجلي بأقوى ما يمكن.

وفي غضون أسابيع، لم تقم «أتاليا» في التحلي إلا بإظهارات موجزة. إظهارات بيضاء، كامدة، ليس فيها إلا كلمات فارغة، بقولها «فكرت بالانطلاق»، منوّهة عن يأسها بأعلى حد من الاختصار. أسابيع، لم نستطع

أنا أو هي الإفصاح عن التخفي أو تسمية المعاناة، عدا عن التحقق من وضوحها وشدتها. والخيط أو التورية «الطبيعية» للنسج، خيط التحليل، وربما خيط الحياة، لم يُقدَّر له ألا يتحطم إلا في الأحلام. كانت تحلم، أحلاماً سوداوية غامضة، دون صورة يتمكن السرد من أخذها، إنما تحمل شهادة حياة نفسية فيها، وفيها من الحياة عدا حياتها هي.

ونتوقع ونخمن ما يمكن أن يشكل صدمة تجاه الترانسفير لفترات معينة فيما الهشاشة النفسية يخضع لها من يجابه هذا الحضور بمجهول. وعندما قد يتحكم الحس السليم بالمداخلة، يسمح الجنون وحده بالانتظار. وكانت تصف «لويس ميغل دومينغوان»، أحد مصارعي الثيران، للموت في الحلبة مساحة متر مربع. وهو يعلم ألا يطأ بقدمه فيه، لكنه لا يعلم أين هو موجود».

وبعد انقضاء عدة أسابيع، توقفت «أتاليا» عن التواري، واستأنف التحليل مجراه، وليس بدقائقه تماماً، دون أن تتمكن الكلمات من البوح بالانتقال، خلافاً لطريقة رعناء.

ومن الممكن أن تتجمّد الأمور عن هذا الحد، ليس لأنها رعناء إنما لأنها مكتومة. إنها بلا شك من حيث التحليل، حلة تنتشر على طبقة الطبيعة،

عندما يعطي الترانسفير، بتكراره لما لم يحصل، صيغة للزمان والمكان والتأثيرات وشهادة الحواس. فاللمس تحديداً، هو بلا شك أكثر أهمية من حاسة أخرى. وبالنسبة لشخصية فصامية كـ «أتاليا»، ليس حاسة اللمس بعيدة عن عرض العنف النفسي بحده الأعلى، تماماً على خلاف ما يمكن أن يكون المحظور من اللمس بالنسبة للإنسان الهاجسي. أن تدع نفسها تتأثر للتحليل عندما يتطلع إلى الطبيعة.

إذاً لم تتجمّد الأمور عند هذا الحد. فالحس المكشوف هو مصدر للمكافأة النرجسية، على النحو الأفضل بالنسبة لبطلي الرواية، لكن بقدر ما يكون الكشف فترة أساسية تسود، بعد الحكاية، من الناحية النفسية، بقدر ما بفترة الطبيعة لا يتأكد أن تمتلك أية أهمية. ويمكن للتحليل أن يؤدي إلى تعديلات ذات شأن، سواء كانت متوقعة أم لا، والتي لا تكون أقل شأناً في أن تظل بلا تسمية.

وبغية حماية ابنتهما منذ الفجر من موعد مهني هام، كذب أهل «أتاليا» عليها سهواً. وكان صديق عزيز جداً للعائلة يعيش آخر أيامه، واستفسرت «أتاليا» عن حالته. وكان الجواب «لا شيء جديد، حالة مستقرة»، وفي اليوم التالي علمت «أتاليا» بالخبر المؤجل للموت. ولم تكن تضمر الحقد على أهلها لخديعتهم، وكانت أفكارها القلقة تتبع درباً آخراً تماماً يثير للدوار، إلى أي فترة تعود حياة من لا وجود له؟ ولم تكن

أي كلمة قادرة على تحديد ما يمكن أن يُعاش من هذه الـ (24)، وخاصة غير «المُعاشة».

ويقودنا سياق الترابطات إلى تواريات تلك الفترة من التحليل، والتي مضت منذ زمن بعيد. وما كان فترة غير محدودة، خلال أسابيع، اتُخذ بدقة في الأجندة، وبصورة دقيقة جداً لشهرين، من شباط وحتى نيسان. فترة بدون تاريخين سنويين واللتان إحداهما افتراضي.

إحدى أقوال الجنون الأمومي الاعتيادي والتي غالباً ما تكون على الأسماع، وليس فقط أثناء التحليل هي: «أنت غير مرغوب بك، وغير منتظر، أنت حادث طارئ، لقد أردت الإجهاض. . .» وتستحضر مريضة الذكرى التالية: أثناء احتفال للعائلة، وعندما كان أحد الأصدقاء يهنئ أمها بـ «توفيقها بخمسة أطفال جميلين» تجيب الأم وبحضور ابنتها الرابعة بين الأخوة: «كان بودي التوقف عند الولد الثالث» كلمات قاسية بتأثيرها السمعي لكنها ليست مستحيلة، فهي تشكل جزءاً من القصة، والقصة يمكننا إعادة كتابتها. وهناك أنواع من الجنون الأمومي الصامت، ضد الطبيعة، وهو تحدٍ حقيقي لقدرات العلاج النفسي التحليلي. والذين لم يتبعوا الطبيعة، وليس لهم قيمة ديناميكية لأحداث التاريخ، وكذلك الأحداث الصادمة منها، وفترة الولادة والتي لم تلق الاحترام، والحمل القصير بولادته المبكرة. وكانت تواريات «أتاليا» تحصل

بين موعدين، الأول، هو الذكرى السنوية لخروجها قبل المهلة المحددة، والثاني هو ما قد يكون في ولادتها، لو كان البطن الأمومي تحمّل إيواءها لفترة طويلة. ولا يكفي أن تكون مبعدة لكي تولد وأكثر من أي وقت مضى، تكرار ما لم يحصل من ترانسفير وجنون التحليل، خلال هذين الشهرين، كان ينتظرها.

II

المداخلة الثانية

إنسانة أخرى: بشغف: شائعات «الأم الطيبة بما فيه الكفاية»

مي كيونغ يي

«أود أيضاً أن أكون أماً، لا يعدو الأمر سوى تقديم القوت للنشاط المستعر لروحي... فالأمومة هي مشروع فتحت له رصيداً ضخماً... إنها مشحونة لأنها تستهلك طاقتي، تجعل قلبي يكبر، وتعوّضني بأفراح لا حدود لها... وبتفان وتضحية بالذات! ألست أكبر من الحب؟ ألست الغبطة بأعلى درجاتها؟ التضحية بالذات، وحدها في سرها، مملوءة باللذائذ التي يتم التذوق بها بصمت، ولا يلقى عليها أي شخص نظرة دنيوية، أو يحيطها بالظنون... التضحية بالذات، هي سمة حياتي... وليس للأمومة زوال تخشاه، إنها تتنامى مع حاجات الطفل، وتنمو معه أليست شغف وحاجة وشعور وواجب وضرورة

علي مولا

وسعادة في آن واحد؟ ظمأنا للتضحية يرتوي منها، ولا تجد اضطرابات الغيرة إليها سبيلاً»[1].

تلك التي تفضي سعادتها بالتفاني، استناداً، لما خطّه «بالزاك»، كما هي، وفقاً لـ «هيلين دوتش» النمط الصافي للأم. ربما قد تكون الوجه الأمومي الذي حَلُمت «سيلفي» به. وحده القلق المضطرب كالتمام الأمومي الساحر وغير المأمول يفصلها عنه، حيث تتساءل: «هل لنا الحق في أن نحيا حياة مفعمة بطفل؟». مثل «نيوبيه» التي فُجعت بموت أولادها لكي تتفاخر بذلك بروعة وجلال، ارتابت «سيلفي» سراً لدى رؤية ظلال العبادة تحوم والتي غذتها من أجل ابنتها. «كانت موهوبة بكل شيء... إنها كاملة تقريباً. أخشى عليها أن يحصل لها مكروهٌ أو تأكلها الخنازير الصغيرة... ابنتي هي وتر «أخيل» لي».

«أن يكون الإنسان متفانياً» ليس موضوع صفة بالنسبة لـ «سيلفي» إنما الجوهر ذاته للأم. وهي أول من تفاجأ بهذه الفكرة. قبل أن يكون عندها أطفال، كان اهتمامها بهم قليلاً، ولا تظهر إلا القليل من الشعور الأمومي، وكانت تقول: «طفل يبكي، يعني تماماً، شيئاً يناشد التغذية». وعندما عاشت

---

(1) Mémoire de deux jeunes mariés, Paris, Gallimard, 1969; rééd. «Folio classique».

الأمومة، غدت «كما لو أنها في عنصرها». تعبير ركيك لدرجة الغرابة لكي تعرب عن هذه التجارب حيث تسعى فيها لأن تكون غائبة كلياً عن ذاتها وحاضرة لدى أولادها بصورة لا حدود لها. وما أن تسمع صرخة طفل، حتى تهرع إليه ك «صفارة إنذار»، وبشعور اللهفة. وخوفها الشديد في ألا تكون على أتم الاستعداد والجاهزية، وفي ألا تستجيب للنداء.

وبالنسبة لها، كما بالنسبة لأخريات كثيرات غيرها، الأم هي كل، ولا يمكنها أن تكون غير كيان، وحدة من كتلة واحدة، لا يمكن تجزئتها، إنها «صخرة» وفقاً لتعبيرها. فهل يحصل إضعاف الأم الصخرة؟ لا يمكن للكتلة الحجرية قضمها، إنما إيقاعها بالكامل.

«أمي مريضة... أخشى أن أقابل أحداً مجهولاً تماماً» إنها لا تستطيع التصور أن أمها يمكن أن تمرض أو تموت، فضلاً عن احتياج هذه الأم «الدعامة» لطفلتها. أمّ مريضة، أم غائبة، أم مجنونة هي أمور لا معنى لها بالنسبة لـ «سيلفي» ليس هناك أم سيئة، فإما تكون أماً أو لا تكون كذلك، لا بل لا تكون. وتعبر الأم من الكل إلى العدم وأحياناً ليس هناك إلا خطوة تتطلب الاجتياز. ولكي تكون مستأصلة الثدي بسبب السرطان وتطغى عليها حالة اكتئابية غير معترف بها بإصرار، وأرادت أن تتوارى، برمي نفسها من النافذة، وتخلّص أولادها من أمهم السيئة، فأن تكون ميتة أفضل من أن تكون غائبة، لأنها

اعتقدت أن الأمهات المتوفيات لا يتسببن بسوء.

العزم الراسخ لـ «سيلفي» في أن تتمدد على الأريكة لم يمنعني من أن أختبر متانة ذراعيّ بقدر ما كانت حالتها البائسة من بداية العلاج تحثني على حملها. ليس إلا أن «تسلبني بعينيها»، كما ستقول ذلك لاحقاً، كنت أخشى أن أتغاضى عن أمرها. وستقوله بطريقة أخرى: «أنا أفرط بالتعلق بالنظرة... بقدر ما تنظر إلي، لا أتمكن من التكلم». كانت نظرة الأم باردة بقدر ما كانت واضحة، وكانت آسرة بقدر ما كانت الأم «صامتة صمت القبور». وقد تعلمت «سيلفي المشي مبكرة جداً وبسرعة، فيما كانت عيناها متعلقتين بنظرة أمها كفم مفترس. وعلى مدار الجلسات، غير قلقي من طبيعته، وكان يتعلق بصورة أقل بقوة ذراعي من تعلقه بمعرفة ما إذا كنت قابلة للأكل، وعلى أي مستوىً. وبعد بضع سنوات، تبدأ «سيلفي» الجلسة الأولى بعد عطلة الصيف، «لم أفكر عملياً بك. وعندما أقول أني أفكر بك، يعني أني أفكر بنفسي. أحتاج لرؤيتك بصورة أقل. وهذا ليس نقص مطلقاً، إنه كمضاد للاكتئاب. كما قلت حاجتي لامتلاك المؤونة».

إذا جرت الأمور على ما يرام، فبدايات حياة رجل صغير تكون صامتة، وفقاً لما يقوله «وينيكوت». مهما تكن المصادر الدافعية أو التكوينية الخارجية، exogènes، وتشهد الضوضاء: vacarme، في تلك الفترات المسبقة للنمو،، بشيء وحيد، إنه

تعدٌّ على عالم الكائن في طور البناء[1]. وبمعنى آخر، بناء شعور تواصل يضمنه الوجود. ما سماه مؤلف كتاب «اللعب والواقع» التجربة المسبقة للتوهم وكلية القدرة. إلا أن ذلك لا يعني أن الرضيع قد يبدأ حياته مثل موناد[2] يكفي نفسه بنفسه، أو مثل كيان أحادي solipsiste. ويشير إثباته المقتضب ـ هذا الشيء الذي نسميه بإقصاء وجود الطفل ـ على العكس، إلى التعلق المطلق للكائن الإنساني بالبيئة المحيطة الأولية وهي هنا تحديداً الأم. ومن ناحية أخرى، تكمن الفضيلة الأساسية للأم الطيبة بما فيه الكفاية، وبصورة متباينة، في قدرتها على الحفاظ على الرضيع من الضرورة وقضاء حاجاته حتى من المعرفة والتبعية الطفولية وتواجد الرعاية الأمومية، وتحول الأم ما يكون الطفل مستعداً على إظهاره إلى أمر واقع. وهكذا، وبصمت، جُعِل العالم الأمومي لخدمة الطفل المذهل. وفقط عجزه هو الذي يثير الضوضاء.

«الصمت» لا يُقصَد به «العطاء»، كما قد يوحي به بسهولة، على سبيل المثال، اللجوء إلى مبدأ التعايش[3]. ومن

---

(1) «La préoccupation maternelle primaire» (1956) , in De la pédiatrie la psychanalyse, Paris, Payot, 1969.

(2) عادة لا تتجزأ تتركب منها الكائنات الحية (في فلسفة لايبنتز) (المترجم).

(3) تعايش بين حيّين أو أكثر من أجناس مختلفة دون أن يضر أحدهما بالآخر (المترجم).

ناحية أخرى، يمكن ملاحظة أن ما يطعن «وينيكوت» به ليس بقدر مساهمة الطور البيولوجي الذي تتضمنه فكرة التبعية الداخلية. فكلمة «داخلية» توقعنا مباشرة بافتراض منحيين، وعندما يتعلق الأمر تماماً بمنحيين لا يمتدّان إلا لفعل واحد. وتضم الملاحظة أيضاً مبدأ «العقدة السرية النفسية»[1]، والتي طرحتها «هـ. دوتش» لإدراك الطاقة الأمومية في تحويل الوحدة الفيزيولوجية إلى وحدة نفسية. وفقاً لـ «وينيكوت»، لا يكون الرهان الأساسي بالنسبة للطفل في هذه المرحلة المبكرة في أن يكون مع، ولا حتى في أن يكون في، إنما في أن يكون. فالأمر إذن، أن قدرته المطلقة تتبين من خلال التكامل النشط للقدرة الأمومية في التكيف مع حاجات الطفل.

لعل الطور الذي يعيد «وينيكوت» إلى مصدر هذه القابلية الأمومية، يخرج، بصورة أساسية من البعد التحديدي للهوية، «الاهتمام الأمومي المسبق». ولكي تتمكن أن تحيا كما يحيا العالم الذي وضعته بحيوية وبصورة كاملة تقريباً في متناول الكائن الصغير المتعلق بها بصورة مطلقة، كعطاء هاجسي واستثمار لصالح الرضيع، أوجب عليها نكران وتغييب ذاتها وأن تكون حاضرة عندما تدعوها حاجات الطفل. وبصورة

---

(1) «Suite de couches et allaitement. Début des relations avec l'enfant», in *La psychologie des femmes* (1949), t. II, Paris, PUF, «Quadriag», 2002, p. 231.

إستثنائية، تنشغل بالطفل وتصبح حساسة بصورة مريضة، فهي تحقق تحرك ذات تماهٍ مجنون يعطي نتيجة مجنونة أيضاً: إنها الطفل ويخلق الطفل الأم التي تكون حاضرة هنا. إنه شكل من الجنون يحمل سيراً صامتاً لتجربة حول توهم سابق للطفل. وعلى هذا «المرض الطبيعي» للأم ترتكز الأساسات الأولى للصحة النفسية للطفل.

«هذان الشهران الأوليان، كان نصفي غائباً عن العالم، لا أسمع إلا نصف ما كان يُقال لي، ولا أرى إلا نصف الناس، كما أقرأ الكتب قراءة رديئة. ونصف عقلي مكرساً له: هل ينال كفايته من الدفء؟ هل يتنفس بصورة حسنة، ألم أسمعه يئن؟ كان هذا شكلاً من أشكال الجنون. كنت على صلة متواصلة مع عالم آخر، وككائن من عالم آخر يحس بلا راحة، في علبته الجمجمية، أصداء كوكبه الأصلي. كنت موهوبة بوجودي في كل مكان، وبحساسيتي الخارقة».

اقتبست تلك الأسطر من كتاب لـ «ماري داريوسيك» وهي تكشف النقاب عن الـ «Unheimbiche» التي تخلق في النفسية الأمومية حالة من الانشغال بالأداة الوحيدة. ويقارن «وينيكوت» بحالة من الانزواء الفصامي بعلم الكيمياء القديمة المثير للفضول[1]، بين درجة بيّنة من الصمود، والغياب عن

(1) والذي يقوم على تحويل المعادن إلى ذهب بواسطة حجر الفلاسفة الخرافي (المترجم).

العالم، وبين انفتاح اختلالي إلى حد ما على الأداة الاستثنائية أو حتى، وبصورة أكثر اعتيادية، إنها صورة الأم المكرسة نفسها والتي التمسها للإشارة إلى الحركة النابذة للطور المحدِّد للهوية: وبالأحرى، إنها تعتبر الرضيع مشكلاً من ذاتها، وهي تكرس نفسها لأجله وتتماهى وتندمج معه.

ولدى ملاحظة هذا التخلي عن الأنا لصالح الأداة، وفي كتاب «الشاغل الأمومي المسبق»، ألا يدعونا الأمر لاستذكار تسجيل لتحليل لـ «وينيكوت» أصرّ به على عزل واستبعاد النرجسية وتعبيرها المميز في التوظيفات المعارضة، الهوى العشقي؟ فإن تعلق الأمر بالطبيعة اللاشعورية لدرجة عميقة أو بإثبات أن الأم تميل لطرد ذلك من الذاكرة، كلما كانت في ذلك مسلّمة، أو حتى التماس صورة الأم الاعتيادية المكرّسة ذاتها، كل ذلك يدل على اشتمال العبء العاطفي والدافعي في تحديد الحركة المحدّدة للهوية للأم. فالتماهي هو التعبير عن كلية تعني الحب، على حد قول فرويد، وتجد هنا الفكرة الفرويدية، أوسع معانيها والتي وفقها يكون التماهي أو تحديد الهوية هو الصيغة الأولى للاتصال بالأداة، وهنا وفي بداية الحياة النفسية يتم الخلط بين التماهي والتوظيف أو الاستثمار.

ومن ناحية أخرى، ولفترة ما، يبدو «وينيكوت» قد جرّب أن يسوق حركة أمومية محدِّدة للهوية مع طور من الضخامة الخالية من الكثافة والضوضاء. كيف ندعم في آن

واحد فكر «أنا الطفل الرضيع» للأم المتوجب عليها الكثير تجاه الطفل الذي تكونه هي أو تلعب بأن تكوّنه وأنه يتقلص، دون باقٍ، في الشرط الضروري لتفهم وتحسس حاجات الطفل؟ والمثال الرمزي الذي يسوقه «وينيكوت» «حاجات الأنا» هو أن يكون محمولاً[1]. وقد يدع الطفل نفسه يُحمل، دون أي فكرة عن وجود حتى خطر الوقوع، إنما بالتأكيد ليس الأم، التي هي على علم أن الذراعين يمكن أن تفلتانه ليقع، الذراعان اللتان تحيطان وتحتضنان برشاقة. فوجه الرضيع المسالم والنائم بين الذراعين لا يمكن أن يكون إلا تعبيراً عن توهمها الهانئ في كلية القدرة، وترى الأم في ذلك علامة عن ثقة مطلقة متاخمة للهجر، والتي قد تجدها لذيذة أو محفوفة بالمخاطر.

بعد فوات الأوان الذي تمثله مجابهة الأم للتبعية المطلقة لطفلها لم تكن على الإطلاق موضع تحليل «وينيكوت»، مع بعض الاستثناءات، مثل هذا المقطع الذي يستذكر، دون أي تدقيق، حالة الهشاشة التي تحصل عند الأم لقاء تماهيها إلى حالة التبعية المطلقة للرضيع. وإلى حضن «الأم الطيبة بما فيه الكفاية» يعود إلى الحياة الطفل (l'infans) الذي كانته. ونقرأ في «الحب المجنون» لـ «أندريه بروتون» «كنت تائهة في ذاتي، وأتيت

(1) «Le passage de la dépendance à l'indépendance dans le développement de l'individu» (1963), in Processus de maturation chez l'enfant, Paris, Payot, 1970, p. 47.

لتعطيني أخباري» وليس من النادر أن تكون الأخبار مدويّة. . .

وكان ينبغي أن نعترف بواقع الحال، فابنتها تكره الطعام جداً، وقد دام ذلك وتشعر سيلفي نفسها مذنبة في التحقق بأن أوقات الطعام أصبحت كساحة معارك. هل لأنها حملتها طيلة عام كامل بليله ونهاره، ولأنها سعت أيضاً للتخفيف عن الحرق الذي سببه لها التهاب البلعوم الحاد ولأنها تألمت، رغم عجزها، لسماع صراخ رضيعها الثائر من الجوع مما أودى به لعدم استطاعته ابتلاع الحليب من الرضاعة؟ وكانت سيلفي تعلم أن العلاقة مع ابتنها ذات طابع خاص دافعية وشهوانية. وكثير من الأمور لدى ابنتها تذكرها بذاتها، بدءاً من خجلها، وطباعها التطوعي وعلى الأخص طريقتها في البقاء على قيد الحياة والنمو بسرعة. ومن هنا ننطلق بالقول أن ابنتها ـ علاوة عن افتخارها بذلك، لم تحتاج أبداً حلمة الرضاعة، كما كانت الحال عليها نفسها في «جميع أصناف الركائز» من مصاصة إلى دمية، وسيلفي ليدهشها ذلك. وكيف تنسى أن ابنتها احتفظت على إحدى تلك الركائز حتى الخامسة من عمرها؟ «يشوشني أن أرى ابنتي من خلالي. . . فأنا لا أتفق معها بالضعف».

أول ذكريات سيلفي عن الطفولة هي تلك التي تتعلق بـ «الأم السحرية» التي كانت تمثلها مع أخيها الصغير. وهي لم تستطع الحلول محل ذلك الطفل الرائع الذي كان يضحك

الأم باعتيادية غير تواصلية. وتبقى لها آنئذ أن تظل الأم الرائعة أيضاً، لأنها موهوبة بكل القدرات بل وقادرة على تحقيق جميع أمنيات طفلها، كـ«جنية بعصاها السحرية».

في أوائل سني تحليلها، لم تكن سيلفي تتسامح مع صمتها وتشتكي من الانطباع في التحدث من أجل لاشيء. لماذا لم أكن أحاول التوجه نحو موضوع يجعل العمل أكثر جدية؟ «وتقول كفي عن ألم الرأس بالخروج من الجلسة، على الأقل لا أعلم أني أدخلت عليك السرور» ويجهل الطفل الرائع التغيب، ليس هناك عطلات في بلد العجائب. إنها تروي حلماً متعلقاً بالقلق حصل في ليلة جلسة كانت قد أحبت تفويتها، لأنها كانت تحس بالفراغ ولا تعلم عما تتحدث. وفي الحلم، راحت تبحث عن عذر باطل كأن تقول أن الأطفال مرضى أو أن هناك مشكلة في المواصلات، لكنها تجد ذلك مضرّاً. وهي قلقة لأنها تعلم أني أعلم أن ذلك غير صحيح، ثم تستيقظ.

«تعلمين أني أعلم... أردفت وأنا أدمدم» فالطريقة التي سردت فيها سيلفي باطنها، ليست كفضاء خفي ودي، إنما كسلسة من الأكاذيب الخادعة وبقي عالمها الداخلي غير قابل للاستضافة شيء.

وهكذا كانت بحاجة للحماية... من ذاتها، ومن أن تختار مسكناً ضمن الإطار الأمومي المثالي، «أماً واضحة، غير مضطربة لا تغلط البتة». الأم التي تعلم، وبكلمة واحدة.

وبهذه الصورة الأمومية تنسج رجاءها في أن تُحمل كطفلة بين ذراعين بصورة أفضل، في بطن أم أو، في حال تعذر ذلك، في النظرة. وبالنسبة لسيلفي تفزع بالدرجة الأولى من رؤية الطفل المنطوي الذي لا يُسمع صراخه.

عودة إلى الإدخالات التي سماها «وينيكوت» تجربة التوهم. ففكرة الرضيع، بأنه موناد[1] منغلق على ذاته أو ممدود بصورة أساسية نحو الانحلال أو التعايش تجد نفسها حالياً تحت وطأة عدد من الأعمال المكرسة للرضيع. ويتضح أن هذا الأخير مزود بمجموعة من القابليات ويشهد على الفور بشكل ما للوجود في العالم الخارجي. ومن هنا يأتي إعادة طرح على بساط البحث نظريات طور الإفرادية، القائمة على هذه المسلّمة المفروضة. فالمفهوم الفرويدي للنرجسية الأولية كحالة أصلية غير معترضٍ عليها وموجهة فقط بمبدأ المتعة تتعرض للانتقاد نفسه. وهيئة الصغير كرجل مزهو بنفسه، في بداية الحياة النفسية، أتكون فقط استكمالاً جزئياً لظاهرة معينة نحو الذهان، أو تخيل توهمي لحالة غير معترَض عليها تراجعية مرتدة نحو الأصل؟ في هذا الجدال[2] الذي يلحق في آن واحد مسالة

---

(1) في فلسفة لايبنتز: الموناد هو عنصر غير قابل للتجزئة، تتركب منه جميع الكائنات الحية.

(2) CF. Sexualité infantile et attachement, Paris, PUF, «Petite bibliothèque de psychanalyse», 2000.

أصل النزوع الجنسي النفسي الإنساني، ومسألة بسط الوقائع بين الجنسي والتحفظي الذاتي، تشغل إسهامات «وينيكوت» وضعية خاصة.

ومن الاستشفاف الأولي، يستجيب مبدأ التجربة المسبقة للتوهم لنفس الانتقاد الذي تعرّضت له النظرية الماليرية (malhérienne)، وعلى اعتبار إصرار «وينيكوت» على انتقال التطور من التوهم إلى انقشاع هذا التوهم، من الواقعية الذاتية إلى الواقعية الموضوعية. والفارق الأساسي يعتبر بالواقع، أنه الرضيع وإنما مجموع الأم والرضيع في تشكيلهما لوحدة نفسية يظهران حالة من الانغلاق مدعومة، بصورة استثنائية، بالرعاية الأمومية. وبالنسبة لـ «وينيكوت»، التوهم الموجود في خلق الأداة ليس حالة بيولوجية معطاة، كما ليس حاجة، إنما هوة خبرة تبرهن العيادة السريرية ضرورتها وأهميتها في أساس القواعد النرجسية.

وما يُسمى في نظريته «واقعية تماهوية» هو، بصورة أساسية مصنوع من واقعية مستثمرة أولاً من قبل الأم. وعلاوة عن ضمانها لاستمرارية الطفل في الوجود، تكون الأم أيضاً حاملاً للواقعية، ضمن الإطار الذي تصنع به، بصورة حيوية ومتكاملة تقريباً، الواقعية في متناول الطفل. فالتوجه نحو الواقع الموضوعي لا يصدر بفضل اختبار الواقع، الذي قد يحرم الطفل من توهمه في القدرة على كل شيء، بل بفضل توظيفات

أمومية حاملة للواقع. وهكذا يسبق الاستثمار، الإحساس في الامتلاك لأول نفي للأنا. وترتكز أول وظيفة تمييزية، بصورة متباينة، على صلابة وغنى النشاط الهاجسي الذي يجعل من الاستثمارات الأمومية ممكنة. وعلى نفس الوتيرة، إن حكم «le holding» الأم الوينيكوتية يحمل أساسات لواقعين، داخلي وخارجي. وفي الأساس، لا تحمل الطفل إلا ضمن الإطار الذي تحمل به العالم من اجل الطفل. ونتساءل كيف يُقدَّر لها الاعتقاد بذلك، على الأقل في أن تكون هي نفسها طفل تجربة التوهم...

وكما نعلم، تجابه عيادة حالات الذهان، بصورة مألوفة، التشويه الخفي لهذه التوظيفات الأمومية المتأثرة بالـ «دليل الشهواني». طفل منطوي على نفسه، يرسم سلسة من الدوائر لانهاية لها، والتي ولا أي تصميم أولي آخر للشكل لا يبدو قادراً على الظهور. ومنذ حملها، تتذكر الأم أن الطفل كان يتحرك كثيراً. وبعد أن شجعها سؤالي، راحت تفتش عن آثار انطباعات حدثت في نفسها نتيجة لتحركات الطفل: «كان يتحرك كثيراً... كنت أقول في نفسي... إنه يتحرك كثيراً».

وباعتبار أن «وينيكوت» كشف النقاب عن التوظيفات الأمومية على أنها أصل تجربة التوهم، فمن العسير ألا نعترف فيها ببصمات النرجسية الأولية. فالأم الطيبة «الخادمة» بما فيه الكفاية، لا تقوم إلا باستجابة للحاجات المفترضة المتعارف

عليها، لكنها تتصرف كمتأثرة ومحرَّضة بالتوهم التخيلي الطفولي الكلي القدرة وفي الثنائي الأولي من يظن نفسه كلي القدرة ومكتفياً ذاتياً ليس الرضيع، إنما هو الناحية الطفولية «d'infans» العائدة للحياة، والتي تصنع توهمها بكلية القدرة في خدمة الأم الطيبة «الخادمة» بما فيه الكفاية. وإذا كان التخيل الوهمي ذو خاتمة نرجسية في بداية الحياة النفسية، فهو ليس من جانب الصغير الرجل، إنما من جانب الأم. وإذا خاضت الأم معركة التبعية والاستقلالية قبل تفجرها لدى الطفل، فتبيّن «هـ. دوتش» كم أن الجسد والنفس الأموميين، يتمكنان من أن يقعا فريسة لهذا النزاع مابين الرغبة في الاتحاد والحاجة للتحرر. فعالم الانشغال الأمومي هو أولي تماماً كما هو طفولي. إنه يساهم في مزيج من الاعتراف بالتبعية المطلقة مع التخيل الوهمي بكلية القدرة.

وأن يكون هذا المزيج ذو طابع نزاعي، بصورة أساسية، لا بل محفوف بالمخاطر، يجعل من المستحيل حلوله محل الوظيفة التجانسية التوازنية التي تجعل «وينيكوت» يعترف بتماهي الأم مع الطفل. ولكي يُقنع نفسه بذلك، كان يكفيه ربما أن يضم صوت «نرسيس» الذي يجعل نفسه يستمع إلى عبارة «أنا هو الطفل» من الأم البالغة ومن طفلها، أنا قلقة. وبالاستشهاد بهذه الأقوال، العادية جداً والغريبة جداً: «أنا أمه وأستطيع ألا أكون هنا»، «وبالطبع عندما لا أكون هنا، أكون دوماً

أمه». ليس الطفل وحده من يُحبطه هذا التوضيح. فالقلق لا يتمسك فقط بالحميمية بين الأم والغياب. «سلطتي عليه مذهلة، تلاحظ الأم في كتاب «الطفل» le bébé. ربما الأمر بسيط في أن أتخلص من ذلك... وعندما يستيقظ باكراً، وآخذه بين ذراعي وأنقذه. أنقذه ست مرات في اليوم عند الإيقاظ... بين ذراعي، إنه إحساس حقيقي بالارتياح»(1) ليس فقط في حالات فشله، إنما حتى في حضنه، يحوي وجه الأم الطيب بما فيه الكفاية، الضجة والضوضاء في العمق، والذي يستعيدها، أصداء نرسيس بخيرها وشرها.

وينجم عن ذلك أن النرجسية الأمومية تتوق لحضور خالد، كما التبعية الطفولية تتطلب وتبتكر حضوراً مليئاً، لا يخلو أبداً من قدرته الكلية. وبالعودة، التي نادراً ما تكون غائبة، إلى تجربة الدين أو الأسطورة في الوصف المثير لصلة الأم بالطفل، إنها ليست فقط بناءً رجعياً للطفل العاجز كلياً عن شكر القدرات الحمائية، إنما أيضاً شاهداً عن المساهمة في حياة الطفولية لدى الأم ويستذكر «ميشيليه» المظهر الإلهي للنظرة الأولى الأمومية، ونشوة الأم الشابة، ومفاجأتها «البريئة» بأنها تحمل الطفل الإله، وعاطفتها «الدينية»(2) وابتكار

---

(1) M. Darrieussecq, *Le bébé*, op. cit., p. 18-19.

(2) Souligné par nous: «Si l'enfant n'était pas Dieu, si le rapport à lui n'était pas un culte, il ne vivrait pas. C'est un être si fragile, =

الإله له ناحيته الانعكاسية. وتتأوه سيلفي قائلة: «ابنتي هي وتر أخيل» كيف نعبر عن هذه الفجوة الحاصلة في الحامل النرجسي بقدر ما هي مصدر للحماس النرجسي؟ وكيف نعرف ذلك التناقص الوجداني للحب الأمومي يتمسك بالطبيعة وبجدّة التوظيفات التي يكون الطفل أداة لها. وكل أداة مستثمرة استثماراً خاصاً تهدد الأنا بفقدان قسم كبير من شبقيته النرجسية. وبعبارات «وينيكوت»، تتطلب الأداة محط اهتمام الأنا الأمومية السقوط في المرض. ولكي تجعل الأنا يعاني من خطر الفقدان، لتثير «حباً ليس لديها فكرة عنه»، والأداة المستثمرة تسبب تناقضاً وجدانياً لا مناص منه. وهناك تحليل لرغبة لاشعورية للأم تجاه الطفل، تذكره «بيير أولانييه»[1] تشير فيه دوماً إلى مساهمة تمني الموت وشعور مطّرد بالذنب. «حب واقعي سعيد يستجيب لحالة أصلية حيث شبقية الأداة وشبقية الأنا لا تتمكنان من التميز الواحدة عن الأخرى»، هذا ما نقرأه في كتاب «من أجل إدخال النرجسية»[2] حتى بالنسبة للأم «الإعتيادية التي تكرّس نفسها بصورة طبيعية» وتأخذ الفكرة

= qu'on ne l'eût eu dans cette mère la merveilleuse idolâtre qui le divinise, qui lui rend doux et désirable, à elle, de s'immoler pour lui» (De la femme, 1859; citations reprises dans É. Badinter, L'amour en plus. Histoire de l'amour maternel (XVII-XX siècle), Paris, Flammarion, 1980, p. 276).

(1) La violence de l'interprétation, Paris, PUF, 1975, P. 137.

(2) (1914), in *La vie sexuelle*, Paris, PUF, 1969, P.104.

الفرويدية مظهر جنة ضائعة يجب بلوغها، شأنها شأن استثمارات حب «متوافقة مع الأنا» توافقاً كلياً، وفي مأمن تماماً من فعل الرفض.

أنا والأداة، تحديداً، ألا تتصرف النرجسية الأولية بموارد من أجل التخفيف لا بل إلغاء التوتر بين الشبقية النرجسية والشبقية الأداتية؟ إن صيغة «جلالة الطفل» ألا تشهد بـ «سمة نرجسية» في المبالغة في تقدير الأداة؟ وفي ملاحظة لما يعزيه الأهل للطفل من مزايا، وإخفاء ونسيان جميع معايبه، يعطي هذا، وفقاً لفرويد، مقياساً لإدعاءات النرجسية الأولية للطفل، ولحد الآن مخفية بعمق: الأنا الخالد بمنأى عن جميع ضرورات الحياة، وجميع المنغصات وجميع الحرمانات، إنه كمثالية خاصة. ومن ناحية أخرى، هذا الحماس النرجسي للطفل الأداة له كنتيجة طبيعية، إنكار للنزوع الجنسي الطفولي، وإنكار لـ «الجرح الفاجع للأنا بسبب الميول الجنسية الخارجة عن أي ضوابط».

إفقار الأنا، ومن القيام بالتوظيفات الأداتية، ليس كل شيء لهذا الجرح النرجسي. وإذا حل الطفل محل ملجأ أكيد للأنا الخالد، والذي لا وجود له في أي مكان آخر، ليس لصالح هذا «الميل تُعلَّق كل المكتسبات الثقافية التي يبتزّها الاعتراف بنرجسيتها الخاصة»؟ وإذا كان هذا الرجوع النرجسي في يوم كبير بعيد عن أي راحة، فليس فقط لنقيصة أن المخزن

الشبقي يصل إلى «ضم طرفيه» ألا يتعلق كذلك القلق النرجسي الذي هو على المحك هنا بفعل أن الفائض الشبقي للأنا على الأداة ـ جوهره حتى من الشغف الغرامي ـ يتضمن «قوة إقصاء حالات الكبت وإرساء الانحرافات الجنسية»؟ ومن هنا يصعب التهرب من المحنة في السير على خطى «ميشيليه» الذي لا يمكن أن يستوحي تبادل اللذة ما بين الأم المرضعة والطفل إلا بإعطائها نبرة دينية قربانية[1]. خُلِق الإله هكذا، بشكل أو بآخر، على خلفية ظلال جنسية.

فهذا ليس وجه إلهي، إنما تماماً وجه طفل متسلّط، ومعطٍ للأوامر ذلك الذي استدعته سيلفي في حلمها. وما أن خرجت من أحشائها، حتى أصبحت ابنتها تتصرف كديكتاتور حقيقي، فارضة إرادتها، موحية بمشاعر متناقضة من الاعتزاز والرفض. ولفترة طويلة، استحال على سيلفي أن تستحضر ذكريات ابنتها، كـ«طفلة نهمة» يستحيل إشباعها، تطلب الثدي بصورة متواصلة. وكان لزاماً علي أن أسجل نص عودة ذكرى هذا الحلم: الحمام، لكي تحقق الباقي اليومي المحرك للحلم.

---

(1) «Naguère il s'est nourri d'elle; maintenant elle se nourrit de lui, l'absorbe, le boit et le mange (comme le chrétien mange symboliquement le corps du Christ) L'enfant donne la vie et la reçoit, absorbant sa mère à son tour. Grande, très grande révélation» (citation reprise dans É. Badiner, L'amour en plus, op. cit., p. 276).

حمام مشترك مع ابنتها في الليلة السابقة، مشهد حنان نرجسي بامتياز، وإن صح القول، وبشكل غير محسوس أو مُدرك، تواجد مناخ إندماجي عكّرته الأسئلة المقلقة لابنتها حول ما إذا سيدوم «صدرها الناقص». وإضافة سيلفي: «ليست إذاً إلا «قصة نهود». . . » وما كان في أصل رفض ابنتها للنهم الاندماجي، وهذا لم يكن لا الشعور بالذنب لعدم تلبيتها، ولا الخوف في أن تفترسها ابنتها، ولا حتى الذعر من أن تدمّرها فموياً، إنما هواها التخيلي الخاص في الاندماج، الممزوج بالتبعية المطلقة وقمة اللذة الفموية.

حلم سيلفي بالتبعية الكاملة ـ في أن تحمل في أحشائها الأمومية ـ كان بعيداً عن أن يكون غزلياً وكان يُخفي بين طياته ظلاً مخفياً ومثيراً، في أن تجد نفسها ساكنة على أريكة متحركة، تابعة ومشبعة بالطعام كإوزة، حتى تكاد تنفجر، وحتى الاختناق، وحتى لو أدى للموت دون التمكن من التفوه بـ «لا». . . وكونها متواصلة مع ابنتها، فلأن تلك الرغبة الملحة بلا انقطاع في «انشغالها الأمومي المسبق» كانت تنقل ضوضاء الطفولية المشحونة بهذا «الاستمتاع في جهلها لنفسها» قاعدة «الإخلاص»: هكذا يصف فرويد وصفاً جوهرياً قاعدة العلاج التحليلي. وبالمختصر، إنها الحالة الوحيدة، كما يقول لمريض مفترض، لمعرفة ما تعرفه مسبقاً عن نفسك. وبالاشتراك مع مقولة «لاشيء إلا في البوح» مع عدم تناسق العلاقة التحليلية،

نادراً ما ينقص الدعوة اتخاذ قلب أدوار الإيعاز. الإيعاز المثير، المعذِّب بالقياس مع قوته في عدم الترابط، وبالاشتراك مع صورة الفورة المباغتة للجنسي اللاشعوري الذي أحلّ قيوده. وتحتدم هكذا بالكلمة المتوقدّة، مدعومة بالتصرّف التحليل، مثارة برفض (Versa-gungen) للمحلل، فنار الجنس الطفولي لا يعفي أي إنسان، لا الموتى ولا العلاقة التحليلية. وفي توهّج الترانسفير، إنها القطعة التي تضرم النار، لاستئناف التعليق الذي طرحه «جاك أندريه»[1] حول الاستعارة المسرحية لفرويد.

وقد تم التأكيد على مقولة «وجوب البوح بكل شيء» وتأثيراتها الدقيقة تفاجئ مع ذلك، في تغافل مسألة أن القاعدة، بصورة متلازمة، ممتدة ومذكورة كمقولة «القدرة على قول كل شيء». وبالطبع، يمضي في ذلك من «الرفق»، إلى الإحساس بالوعد، باستقبال أي ظاهرة لتمنٍ لاشعوري. مهدِّئة من روعها (مطمئنة)، من الصحيح، هذا الوعد بالاستقبال لم يكن في ذلك أقل مُعاشاً مما هو مقلق وسادي. فمشهد قصة عذاب الجرذان في «رجل الجرذان» خير مثال رمزي على ذلك. «سارقة الأسرار» هكذا تصف لي سيلفي وهي تتساءل إن لم تكن مجنونة في تسليم جميع أفكارها الحميمية.

---

(1) «Passionnément», in De la passion, sous la dir. De J. André, Paris, PUF, 1999, p. 3.

والدعوة إلى «القدرة على قول كل شيء»، أفضل من ترك نفسها تمضي إلى قول كل شيء ملتمسة التخيّل الوهمي في العودة إلى (الحظيرة) الأمومية النرجسية، بقدر ما يثيرها الجرح النرجسي. وعلى نفس المنوال، هو أحياناً «الكل» الذي يحمله على «القول». ماذا في ذلك إذاً من الذي يدعو إليها.

كنا في ذلك على طريق الانفراج. وكانت نهاية العلاج تنتظر إلى إيجاد كلمة تقولها. وكنت أفكر أن على ذلك أن يصدر عن المريضة. كيف هي نهاية التحليل؟ هل حقاً هناك نهاية؟ تتساءل سيلفي: إنها تتذكر صديقة كانت قيد علاج مع معالج نفسي. وترى صديقتها هذا الأخير وكأنه صديق مقرّب من خارج العلاج. «بالطبع، أنا أيضاً وددت أن أتخذك كصديقة لكن ذلك قد يجعلني غريبة...» هذا ما قالته. وفي تلك الآونة، فوجئت بتذكري للأسف معبر عنه بصورة انفرادية داخلية بخصوص النهاية القريبة للعلاج: «حقاً لقد قمنا بعمل تحليلي مدهش، كم هي خسارة أنها لم تختر، بالتالي، الشروع بدراسة... علم النفس»! نسمع كثيراً، ونتلقى كثيراً... لكن تلك كانت حكاية أخرى.

III

«حكايات على سبيل الذكر»
على الأريكة

سيلفي دريفوس آسيو

إن عبارة «الجنون الأمومي» مقتبسة من «أندريه غرين». وباستخدام هذه المقولة، ينبغي الإشارة إلى ثلاث نقاط: مرحلة ارتكاب المحارم المترافقة بالعلاقة الأولية مع الأم، والرغبات المحرمة للأم تجاه الطفل والمعتبرة كعلاقة شغوفة أو أيضاً «جنون أمومي»، ووجود مدى في جوهره محرم في العلاقة الاعتيادية مابين الأم والطفل، ووجود حالات من «الجنون الطبيعي» بصورة متلازمة تعني حالات شغوفة بصورة طبيعية، في علاقة الأم بالطفل.

وتضع النقطة الأولى على المحك، قوة الصلة الجسدية بالأم، فيما لا تُقبل حالات الوسط. إن لهذه العلاقة الجسدية

الشهوانية بدايات تجعل من المرحلة المحرمة، مرحلة ذات طابع دائم، وتتواجد بأشكال ذات بصمات تتعلق بالذاكرة (mnésique) لاشعورية.

وفي مؤلف «Le Moi et le ça»، يذكر فرويد أن العلاقة بالطفل في أحضان أمه هي النموذج الأولي لجميع العلاقات الغرامية اللاحقة. وفي تزامن مع هذه العلاقة، يشير إلى علاقة التماهي مع الأب قبل توضح ملامح التاريخ الشخصي. ولاحقاً «أبريجيه»، يحدد بأن الأم هي المهيّج الأول للطفل. وهناك عقدة أوديب والعقدة الأبوية والعقدة النووية لحالات العصاب... ويُضاف إليها بالنتيجة، فكرة عقدة أمومية حيث تلعب الأم الدور المحوري... ليس فقط قبلاً، إنما في الوقت ذاته.

مهما تكن هذه الصلة الجسدية للأم لا يمكن قبولها، فهل هي نفسها التي نعتبرها «العقدة الأوديبية» كمنظومة أصلية شاملة، متواجدة منذ البداية، وتحديداً يتخذ الأهل شكل «أوديب»؟ وكيف يتم التسجيل على الصعيد النفسي ثلاثة أقطاب لمثلث أوديبي، فيما الأم هي الوحيدة التي تمتلك علاقة شهوانية مع القطبين الآخرين في حين أن الأب والطفلة ليس لهما إلا علاقة جزئية غير مباشرة؟

لعل النقطتين التاليتين من عرض «آ. غرين» تقودانا للاستفهام عن مصير هذه الآثار، ويعتبر هذا «الجنون الأمومي» بين حالة شغفية عادية، وبين نمطية أكثر شدة وتواصلاً. ويذكر

في هذا الإطار، كم أن الصلة المحرمة بالأم، عندما يُناط الأمر بالبنت، هي الأداة الأيسر لهذا الشكل المفرط. وإن سمة المثلية الجنسية والنرجسية للزنى، تساهم إذاً في الحفاظ على استمرارية ونوعية الجو العشقي الذي يقوم على أن الانقطاع بين الأم والبنت يبدو لا أساس له.

لقد اخترت أن أسأل «الجنون الأمومي» عن انحدار «جنون الصلة بالأداة الأولية»، في معالجات نساء أخذناهن من آثار صلة محرمة لا حدود لها ـ أو على الأقل، بحدود تتميز بصورة مفرطة للصلة الشهوانية الأصلية.

وسعياً وراء آثار هذه العلاقة، بالأداة الأولية المرافقة للنموذج الأوديبي، فإشكالية الرغبة والتماهي المعتبرتان سوية تسوقنا إليها أداوت العلاج. إنما على الأجدر هنا حيث يفشل الكبت في تنظيم هذا الارتباط، والذي يتجلى بصورة مباشرة أكثر بعلاقة صلة البدايات هذه. وغالباً ما تكون صامتة في الأهواء التخيلية أو الذكريات، وأحياناً تنتقل إلى الإيحاءات حيث تضفي الصبغة الوجدانية العاطفية وفجاجة الصور غرابة على الترانسفير، وتشدد هذه اللحظات من الظهور الدافعي الأكثر فظاظة على العلاج، وشدة التبعية، لا بل الاحتجاب والتواري، مقابل العدوانية، وشدة الغموض، بل التدميرية، مقابل التناقض الوجداني، إنها فترات من العلاج المربك، يمكن حتى أن تعطي شعوراً بالهروب من الإعداد.. على الأقل لزمنٍ

ما، أو على الأقل في الإصغاء للتحليل، ومع ذلك متسربة هي أيضاً، من العشقية المتماهية للنزوع الجنسي الطفولي. ويوحي هذا الاستدعاء المباشر للنزوع الجنسي الطفولي فعلياً تجربة غير مألوفة في الإصغاء للمحلل. إنها تجابهه بسلبية لا يمدها المدى الماسوشي بصلة عشقية كافية. إنها تبرر، بضربة، الاقتراب إلى ناحية أخرى، لما للترانسفير من تقارب يربطها بها هنا. وضعية الإخفاق لدى المريض قيد التحليل من اللعبة المنسقة المتناوبة للتماهيات والرغبات وصعوبة تخلص المحلل من الذهول إلى الحد من الصدمة، تعيد عندئذ إلى الطريق تحولاً آخراً للجنس الطفولي محركاً أهواء تخيلية أخرى من الربط كماسوشية جنسية مهيّجة. هذه الحركة المضاعفة ألا تحض بالتحديد على الربط العشقي التهيجات مترافقة مع جسد الأم في الحالة الراهنة مع نوعية العلاقة بالأداة الأولية؟

بعض العلاجات أو على الأقل بعض التحركات في العلاجات، تسوّق إلى التفكير بهذه الأسرار للعلاقة الأوديبية. إنها تحث على التحوّل بالزنى الأمومية، بنفس فعل الصور الخارجة عن المألوف، والتي تتخذ العلاقة بالأم في الحالة الراهنة من حكايا الحيوانات، المسبوغة بالضراوة والمرتبطة مع اليافع منها. وبقدر ما في محتوى الأدوات في الحدث التطوري، هذه التظاهرات المتكررة تشق طريقها إلى جذوره إلى عقدة أوديب في طلائع طوطمية (رمزية). وهي تستدعي بصيغ

وبفترات متنوعة، للطور، هذا البدائي، الذي هو في آن واحد، ضامن من الدافع الأصلي ومن آثار التحولات التي فشل في تحقيقها جزئياً الفعل الكبتي. وانطلاقاً من هذه الزاوية. لا يضرب على الفور هذه البدائي بقيمته النكوصية. وبالمقابل، طابعها غالباً غير المألوف، لا بل الصادم، في نقص العلاج يظهر على الأجدر تعلقاً متواصلاً بمرحلة من الحياة الدافعية المتصفة بكلية القدرة في التفكير والرغبات اللاشعورية في العقل والزنى. وبالعودة صراحة إلى العلاقة الأمومية، أو مرسخة أكثر بصورة لاشعورية في هذه الجنسية الذهنية باحتكاكها بالجسد، تأتي هنا صورة الحيوان مشيرة للتوقعات والمتطلبات، المحفوظة والسليمة في جزء منها، قياساً مع الصلة المحرّمة. وفي التحرّك نفسه، تتوجه للاقتراحات الشهوانية التي تحرّكها هذه الصلة وإلى قدرات التنقل التي تشهد بها.

وبالعودة إلى ذلك الزمن المحرّم، وإلى الرغبات التي تنعشه والذعر الذي ينجم عنها، تفعّل هذه الفترات الخاصة للعلاج القطب الجسدي للأوديبية. ويضع ثانية عندئذ على المحك المكان حيث يسجل الجنون الأمومي علاقته على العقدة الأبوية. وهكذا، ليس المستهدف هنا ضعف الصلة بالأداة الأولية. وما يُتخذ جزئياً، هو على الأجدر علاج خاص للدافعية الأولية، ولهذه الصلة الراسخة بالجسد الأمومي إنما ليست بقدر ما هي غير قابلة للتنقل.

أي أوجه من الجنون الأمومي يستدعي الحيوان في الجلسة ليسجل الآثار ثانية أو على أدنى تقدير، ليقاوم تأثيرها؟ وكيف يلتمس الترانسفير لتتمكن صلة المحرم هذه أن تشق من جديد طريقها نحو الدوافع الجزئية وإلى مصيرها الأوديبي؟ جنون أمومي، جنون صلة الأداة الأولية والجنون المدرج في صور الحيوان عند الجلسة. . . مساوياً لمسالك الالتقاء وتقييم ما يمكن أن يجعل مستحيلاً التنقل من الصلة بالأداة والأولية ومعه الحب الأوديبي. وإنما مساوياً أيضاً للمسالك من اجل أن تربط من جديد، في الترانسفير ومع هذا الإفراط الجنسي، وهذا الإفراط في الغموض، أو تجاه الاستمتاع والقتل أو اللذة عدم اللذة، وفقاً لاستجابة الأداة.

أود الآن أن اعرض ثلاثة مشاهد سريرية في العيادة. اثنان منها يلقيان الضوء على الأقوال التمهيدية والسرد خلال الجلسة، لما يمكننا أن نعتبره كمحاولات للقتل، أو قتل حاصل فعلياً لحيوانات مألوفة. ويأتي المشهد الثالث، على العكس، ليعدّل اقتراب آخر من الجنس الطفولي، استعمال آخر في اللجوء إلى الحيوان في اقتصاد العلاج إلقاء النظر على الحيوان للعلاج بالرمز، الأداة انتقالية، الطاغوت، يمكننا من تقييم القيمة النفسية لكل من هذه الأوجه، المجابهة للصلة المحرمة. وهي تدل كذلك على ما يحاول كل وجه في الحفاظ أو إعداد الدافعية البدائية، للمنفعة التي لا تعوض بالصلة بالأداة الأولية:

جولي إمرأة شابة قدمت للاستشارة لمعاناتها منذ أشهر من هجومات مفزعة. فرهابها من الخلاء حبسها في بيتها، ومنعها من ممارسة مهنتها ومن معايشة أي حياة اجتماعية. وكان كلبها ملجأها الوحيد، وهوة من نوع لا برادور، والذي حصلت عليه مؤخراً، رغم معارضة أمها، والتي تعتقدها عاجزة عن الاهتمام بحالها. وكان الكلب كثير اللعب، وادع، أمين وهو الذي أعاد إليها حب الحياة. وتتمكن معه من السير في الشارع دون خوف، وتتكلم مع الغرباء، وحتى رعاية من هو أضعف منها، كالأطفال والمسنين.

ولم تحضر الجلسة الأخيرة، دون أن تنذرني، وهذا ما كان غير اعتيادي. وبالكاد أن جلست، وأردفت تقول لي: «لم آتِ في المرة الماضية لأن كلبي قد دهس. ولم يلق حتفه لكنه قيد الاستشفاء» وكانت منفعلة جداً. فسألتها: «وكيف حاله اليوم؟» فطمأنتني وأطلعتني على الرعاية التي أحاطته بها منذ أن خرج من المشفى، ووصفت لي ذهولها أمام قدرات استعادة الحيوان. ولعل اضطرابها والترانسفير الجانبي الذي تركته ينمو مشيراً إلى مصلحتي في المحن والدعابات مع «أفضل أصدقائها»، والحث ضد الترانسفير الناتج بفعل نبأ الحادث قادني بصورة عفوية إلى هذه التساؤل المباشر، في الواقع والمظهر التشبيهي بالإنسان.

ماذا يحرك الكلب بيننا، في هذه الفترة الخاصة حيث

التهديد المميت لم يكن مستبعداً؟ وإلى أي تصورات صامتة يعيده إلى تحدّر التبعية الطفولية، وأيضاً إلى فائدة الصراع الحياتي والثقة بالارتباط؟

بُعْد اللعب كان كذلك قيد العمل في هذه النقاهة، التي وصفتها المريضة بـ «المعجزة»: «لا زال كلبي يشعر بالألم عند الوقوف على أثر الصدمة، لكنه عاد إلى سرقة حذائي، مما يشكل دليل تحسّن» علاوة عن أن الاحتجاجات هي عناصر إدراكية، وشبه هاجسية، وتضفي على الجلسة ناحية عاطفية. فتمثيل الكلب المصدوم بالحادث هو حامل لتكثيفٍ عالٍ. إنها هي التي حثت على التأثيرات المسجّلة في الصلّة المحرّمة والتي تعكس التوهّم بكلية القدرة المترافقة بالإعجاز. وعلى خلفية هذا التوهم، وتبديل الجلسة، الفعال ظاهرياً، يتخذ الميدان قيمة مجال توسطي بيننا. وصورة الحيوان تستخدم وتختبر لدى المريضة كأداة انتقالية متأرجحة مابين خطر فقده (الحادث) وإعادة الاطمئنان لوجوده (اللعب هو دليل على الحياة بعد الحادث). ومن خلال هذه الصورة، هناك بُعد التبعية، المترافقة بآثار جسد الأم، الذي يواجهها ثانية للمرة الأولى.

وفي مخرج من هذا التبديل، تصبح المريضة شاحبة جداً وأشعر برغبتها في أن تحدثني عن الحادث نفسه.

دُهس الكلب بسيارة كانت تسير مسرعة جرّته ثلاثمائة متر. واستدعى الأمر رفع السيارة بالرافعة لإعتاقه. وبعد

ذلك، أخذته للطوارئ ولزم عليها أن تنتظر لبعد غد لكي تتأكد من أنه لم يمت. ورجعت إلى بيتها بعد بضع ساعات لتغيّر ثيابها لأنها كانت مغطاة بالدم، إذ أن الكلب نزف من فمه ومن أنفه. وخلال الطريق إلى المشفى، كانت متأكدة أنه سوف يموت، إنها معجزة.

وقد خففت القصة من ضيقها. والآن أشعر أنا بالصدمة. شعور بالعدوى يترافق مع المناخ الإعجازي للحياة الباقية. وقد نقلت المريضة لي عنف التصورات، وقدرتها الاستذكارية للحد من الأفعال. والعزل بين تمثيل الكلمات والأشياء يبدو لي ناقصاً لدرجة الغوص، لزمن ما، في كون من الأفكار كلي القدرة. عدوى ومبالغة في تقدير الأفكار يأتيان هكذا لدعم شعور الخوف من المشهد. وبوضوح، جنون صلة الجسد الأمومي مشمول في عرض القصة التي لم تدخر أي تفاصيل، أي دقة عن جسد الحيوان في جميع حالاته ومستوحية كذلك شعوراً بالذعر.

وللخروج من هذا التبديل الروائي، ذي القيمة المضخمة (scopique) والتأثير الشرجي، تستطيع المريضة استعادة عرض ظروف الحادث.

لقد حصل ما حصل في غابة «بولونيا». لقد اعتادت على التنزه فيها مع كلبها. إنما في ذلك اليوم، كان يظهر نفاذ صبر في الخروج بالسيارة لدرجة أنها حنقت واغتاظت. وراحت

تفكر: «إنه يثير أعصابي كثيراً، تباً!» وفتحت البوابة دون أن تضع له حبل المقود. فاندفع خارجاً، مما شكل خطورة عليه، هذا ما قالته في نفسها. لكنها لم تتوقف هنا: وفي الجزء الذي نزهته به، ذكرت أنها خشيت من ترك السيارة مفتوحة. فعادت أدراجها، دون أن تعير انتباهاً للكلب. وقد رآها تنطلق ثانية، فاجتاز مندفعاً قارعة الطريق من أجل اللحاق بها. وفجأة لم تره مطلقاً. فأدركت أنه اختفى، وراحت تركض كالمجنونة، باتجاه سيارة توقفت على بعد عدة أمتار. ثم وصفت لي من جديد، الكلب المختفي، ثم رأسه المخضب بالدم تحت هيكل السيارة. والدم ينضح من حلقه لكنه كان حياً. وقد تصرّفت بسرعة كبيرة، واتصلت برجال الإطفاء. وخلال هذا الوقت. نهض الحيوان ثانية وغاص بين ذراعيها. حملته في سيارتها واصطحبته إلى المشفى.

الفترة الثانية من سردها للقصة، عندما جابهت الصدمة مشيرة لي بكل وضوح إلى طباعها الآثم عن الحادث. لعل ما لفت نظري بدايةً، هو حاجتها لأن تكرر لي القول بأدق التفاصيل حول الجسد المقتول والدم والهجران، وضمه لذراعيها دون أي حركة عدائية للكلب الجريح. امتلكني هذه المرة شعورٌ بعنف باطني. وبالتأكيد استمرت المريضة بتفريغ الصدمة عن نفسها وهي تحدثني إنما تستخدم كذلك نهايات أكثر سادية، في الترانسفير. هل تريدني أن أحيا شعور الشراسة

الذي أوحتها له أمها ببرودها ولامبالاتها أوان طفولتها؟ وما الثأر المكتوم الذي تمارسه بإلحاحها على أن تبقيني بسلبية مؤلمة وعاجزة خلال سماعي لها بلا تدخل؟ ربما خالجني شعور بهوىً تخيلي ماسوشي إنما على الأرجح، استجاب انتظاري الصامت، حسب اعتقادي، لـ «استخدامها» للأداة، وللمعنى الذي ميز به «وينيكوت» «الاستخدام» عن «العلاقة» بالأداة. وقد وضع هذا التمييز على المحك صيغتين لإعداد التبعية، و«الاستخدام» وحده يولج التدمير بواسطة الموضوع في المكان المحدد للأداة. وبالفعل، إلى حينه، بدت المريضة قادرة قليلاً على «استخدام» ما. وضراوة المشهد لم تكن مطلقاً تكراراً بسيطاً صادماً، إنها أيضاً تجربة استطعت استئناف تدميرها مثل الكلب المحبوب. إن ما حصل من تليين للطبع في علاقتها مع الأداة، هو وجود هوى تخيلي قاتل عازل وليس فقط مقضي عليه نهائياً. وهكذا بدأت المريضة في التخلص من أمجية imago الأم النرجسية، الكلية القدرة، وكذلك من برودتها المفترضة التي لا يمكن بلوغها. وباستخدامي، في الظرف الحالي، وإخضاعي لحالة متجددة وتفصيلية من العنف القصصي أحيت المريضة دافعية تدميرية، تحتوي إلى حينه موضوع علاقتها بالأداة الأولية. وقد أتاحت لها مهاتراتها ضد أمها، بصورة محتملة، أن تحتفظ بهذه النزعة التدميرية، تحت غطاء من العدوانية الرد فعلية. وربما تكون تشكيلتها نفسها، شكلاً من أشكال الانهيار. ويمكن الآن على خلفية هذه العدوانية للرد فعلية أن

تظهر دوافعها التدميرية، وهي جذور لعدوانيتها، ومصدر لنوع من الخارجية بالنسبة لها. وبالفعل، لعل تجربة الحادث لم تُدخِل فقط حزمة من إسقاطات المريضة، بل أكّد لها ذلك ما هو موجود، أي، ما هو مدعاة للفخر، ويتواجد بصورة استقلالية، مهما كان الهجوم. ولعل علاقة الثقة والحب، سواء مع الكلب أو مع المحلِّل المنشغل بالكلب، أتاح لها تعديل صفتها العدوانية: من أداة للهجوم، إلى أن تستطيع الآن أن تعبّر عن ذلك بمقدرة تكاد تكون عدوانية.

وقد اغتنى المدى الوسيط للبداية بهذا السبر الجديد للقدرة الكليّة الذاتية المرفقة بجسد الأم.

وفي الجلسة تتحدد خصوصية اللجوء إلى الحيوان. والهالة لكلية القدرة تسبغ الرواية الأولى للحادث. ووجه الحيوان أثر التبعية للصلة المحرّمة يسهم في إعادة إعداده الأول. ومعه، الحب والتدمير يُراجَعان في الترانسفير. إلا أن هذه المراجعة تُجرى على نمط قبل أي إسقاط. ومع الرواية الثانية، تتعدل العلاقة الأولية بالأداة، فاستخدام الأداة، المحلِّل والكلب، يحولان الاقتراحات الدافعية من حب وضغينة إخراجية إلى تمثّلات وتصورات داخلية. هذه الصلة المعدِّلة للجسد الأمومي تفسح للإعراب عن رغبة قتل الأداة المحبوبة. الكلب المؤتمن والذي فارق من دون عدائية بعد الحادث، والمحلِّل الذي ينتظر عبارة لقصة شاقة دون مقاطعة بتدخل أو بترجمة، يؤكدان على

ثبات الأداة. وكما أشار «وينيكوت»، هذا الثبات للأداة يُعرب عن نفسه، بدقة، في قدرته على الاستمرار في الوجود، ويعني ذلك أيضاً عدم ممارسة أعمال انتقامية. وما ينتقل هكذا من الحيوان إلى صلة الترانسفير هو استجابة الأداة المكتسبة لكي تستأنف إعادة التقييم في مجرى الجنون الأمومي. وتخص إعادة التقييم هذه، الإعادة المحتملة لهجوم جسد الأم. والحيوان خلال الجلسة هو الصورة المسبقة بتبعيتها وقتاليتها، من ناحية، واستمراريتها في الحياة من دون أعمال إنتقامية من ناحية أخرى. والحركة الترانسفيرية وضعتها قيد العمل، من خلال هذا التسجيل الثاني للصلة الشهوانية.

وتستأنف الفترة التالية للقصة حركة إزالة التكثيف. وتقود المريضة إلى العودة على تحركاتها الداخلية. إنها تصبح من جديد ممتقعة وتشرع في وصف الحوار الذي يسكنها قبل وخلال الحادث.

استطاع هذا الكلب الذي طالما أحبته أن يغيظها لدرجة أن زجت به في الخطر، كما لو أنها تريد التخلص منه. وقالت في نفسها: «تباً، إنه يوترني كثيراً في تحرّكه هكذا، وفي منعي من قيادته!» قبل فترة قليلة، مالك الكلب كان قد حذّرها عندما روى لها حادثاً حصل لكلبه الخاص، وفي نفس المكان. فلقد تم تحذيرها إذاً، ولم تدرك ذلك، كما لو أنها تمنّت الموت لكلبها! وتبدو متأثرة جداً لما حصل في نفسها. وعندما أدركت أن

الكلب كان قد اختفى تحت العربة وأنها راحت تركض باتجاهه، فكرت: «تباً فيما لو مات، ليس لهذا أهمية!» وقاطعت نفسها، متجمّدة لما أتت على روايته. ولم تتوقف عن التفكير به. إنها لا تكاد تفهم لامبالاتها باللحظة، وبتفكيرها المباشر. إنها تشعر بذنب كبير، وليس هذا فقط، بل إنها تخجل وتكره نفسها. أخوها وجدتها حاولا تبرئة ساحتها، لكنها هي، تعلم أنها لم تروِ لهما جوهر الأمر، وعن أفكارها قبل وخلال الحادث.

إنها خائفة من نفسها، ومن عجزها على حماية كلب، طالما أحبته، من غيظها الذي دفعها إلى سلب حياته. واليوم، يسير نحو الأحسن لكنه يتألم. وهي لم تتريث، فألم الكلب لا يبدو لها هاما بالنسبة لموته الذي لا تطاله العدالة. وحتى لا يبدو إنها عائبة. واقعياً بهذا الألم. وكررت قولها لي عدة مرات، عن ذهولها من موقفها إزاء الكلب «فهو حيوان كطفل، ولا يتعدى تفكير طفل والذي قد يجتاز الشارع من دون انتباه، تمامً لن شعوره أنك تطلقه ثانية دون أن تصطحبه!»

وقلت لها ببساطة: «الطفل ليس حيواناً، أنه طفل».

وفي الفترة الأخيرة من الجلسة يتحرك عند المريضة تحدرٌ آخر من التدميرية، وأيضاً هنا مكتشفة من صلتها بالحيوان.

هذه المرة، ما برز على المستوى الأول من تأثيرات المريضة، هو الخجل والشعور بالذنب المرتبطان بتمنيات الموت

لحيوان محبوب. فالحيوان، هو في بادئ الأمر، شاهد وأثر للصلة بالجسد الأمومي، ألا ينعقد هنا بخيط الطوطم الرمز والمحرم المحظور، والشعور بالذنب المرتبط بموت الأب، والحنان المفرط الذي تلا ذلك، والحيوان المتجسد بهذا الأب المتوفي؟ وماذا يمثل في هذه الفترة من الترانسفير، الحنان غير المشروط للكلب، من ناحية، والخجل والشعور بالذنب المترافقان بأفكار برزت أثناء الحادث، من ناحية أخرى؟ وفيما يخص الحنان، ألقي الضوء، هذه المرة، على شدته. والخوف الذي شعرت به المريضة يعود للتباين بين الحب الخالي من التصدع تجاه الحيوان واللامبالاة، لا بل الإحساس بالعزلة والهجر la déréliction froide، للإستجابة التي وضعت الحياة في خطر. وهو التباين الذي يصف الرهان والتوجه اللاشعوري لأفكار التدمير، بعيداً عن التناقض الوجداني لدوافع الحب والكراهية، إنها تستهدف المحرِّض على الإثارة. ولا يخص بالنتيجة هنا الإفراط في الحنان لا استجابة الأداة (ثباته بلا أعمال انتقامية)، ولا التشكيل الرد فعلي لأفكار التدمير (الحنان المفرط للأب المتوفي). إنه يشير إلى المأزق والطرقات المسدودة لجسد الأم وآثارها ويواجَه لاستجابته بلا تأثير لهذا الفعل الماحق. وبالفعل، هناك حيث شدة الحنان للأب تحمل أثر صراع حي متناقض وجدانياً، فيما شدة الحنان للأم يشير، في هذه الحالة، إلى الاستحالة أو النفي القاتل لهذا الصراع.

هذه الفترة الأخيرة من الترانسفير على الحيوان تشير إلى ثقل وأهمية نزاع التناقض الوجداني في صلة الأداة الأولية، قبل انتقالها للأب. وتشير أيضاً إلى تأثيرات التثبيت المميت، عندما لا يبلغ هذا النزاع التهيئة.

وتكثّف صورة الحيوان عندئذ حركتين، من ناحية، مناشدة الاستعادة الجنسية للآثار المحرّمة من أجل تحدّي إزالة الجنس المُدرج في شدة الحنان، ومن ناحية أخرى، الخطر الحياتي الذي لا تزال تسلكه هذه الدافعية البدائية بنظر المريضة.

وللخجل صلة ظاهرية بهذه الدافعية الأكثر وحشية والأقل تمدناً، ومن هنا بالذات، الأكثر قرباً من الجسد. والعنف في مجرى الفكر، من خلال وضع الحيوان موضع الخطر الواقعي، هو أيضاً، يترجم التكافؤ المزدوج لهذه الفترة الترانسفيرية. والشطط الاقتصادي وصعوبة ما قبل إعداد المريضة يحملان علامة صلة شهوانية لا زالت مقلقة جداً. لكن الانتقال إلى فصل الحادث يدل أيضاً على التهديد بالموت الذي يثقل على الطفل فيما لو حُرِم من الحب والعدوانية، فيما عدوانية الأم يمكن احتمالها ويمكن الاستجابة، إليها أيضاً. والقرابة النهائية للحيوان و«حماقة» الطفل، وصعوبة المريضة في تدرج الضيق المحتمل المرتبط بالتبعية (ألم الكلب المجروح، وموته)، يشهدان، كل على طريقته، بهذا الارتباط نفسه بتلك الدافعية البدائية وبهذه الصعوبة في إدراجها. و«حماقة» الطفل

ألا تورد، فعلياً، إنكار الطفولة؟ وبالنسبة للإفراط في الشراسة، ألا تعيد إلى الحياة فرطاً في إزالة الجنس؟ فيما العنف الحياتي، والحب الحياتي، كل هذه العبارات تكرّس تبديل سريان جنون أمومي، في بادئ الأمر مختلط مع تبعية قاتلة.

ومن خلال هذه الصورة للحيوان الوادع جداً والمشاعر التي أوحاها للمريضة في نهاية الجلسة، رأت النور صيغة جديدة لآثار ما. تبدو هنا حيث الاستجابة التأسيسية للأداة الممنوعة بشدة التبعية (شدة الحنان) أو التهديد بنزع الحب المقتول (الأفكار المنبثقة خلال الحادث). وفي المفهوم المنفتح باستعادة الجنس الصراعي، تبدأ المريضة بمواجهة شكلٍ آخر من نزع الجنس، وحماية أهلية الصراعي، تبدأ المريضة بمواجهة شكلٍ آخر من نزع الجنس، وحماية أهلية جنونه، والتي لا تختلط مطلقاً مع نزع الجنس بلا إتلاف، وبالاشتراك مع الأحجية الأمومية القاتلة. ويظهر خوفها المتعلق بأفكارها أثناء imago الحادث، رفضها لتماهيها مع هذا التصور لأم نرجسية. وهذا الرفض بالذات يستمر خجلاً وشعوراً بالذنب تحس بهما، مجابهة مهارة انتقالها إلى الفعل، الكلب الطفل وبالمصير الذي احتفظت به، وزوال إلى حركة الحياة المحملة بهذه الدوافع المعبّر عنها بتأثرٍ شديد.

إن جنس الكلب، كمنقذ للحياة، يتخذ هنا كل معانيه. إنه يجسد مقاومة المريضة في التخلي عن الدافعية الأصلية في

العمق الحياتي. وهي تؤكد رهان اللجوء إلى الحيوان عند العلاج، ودورة التنقلي بين الجسد الأمومي والانفصال الانفرادي. إنها تصوغ تنوعات هذا الإعداد، شديدة الحساسية دوماً إزاء التخلّي، وفريسة دوماً للتناقض الوجداني، الأمر نفسه بالنسبة للجذور الجسدية للتعلق المحرّم.

وهي تشير أخيراً كيف يمكن للجنون الأمومي الأصلي أن يصبح جنوناً أمومياً اعتيادياً. وبالفعل تسمح الحركية والمعكوسية المتواصلة للإسقاطات على الحيوان (الكلب ـ الطفل، الكلب ـ الأم، الكلب ـ المحلل)، وللترانسفير في أن يحرف المرتكزات المختلفة للصلة المحرّمة، بنقل الشدة المثبّتة بالصدمة.

وفي نهاية إحدى الجلسات، وضعت صورة الحيوان قيد العمل الشعور المزدوج للخجل والشعور بالذنب، مظهرة تزامن الدوافع المحرمة والمتعلقة بالعقدة الأبوية. وهكذا يتأكد ثقل العقدة الأمومية بالعقدة الأبوية، بل ويتأكد أيضاً إعدادها الضروري من جديد لكي تتمكن العقدة الأبوية أن تتكون.

وعلى امتداد هذه الجلسة، كانت تظلمات المريضة تتجه بدورها إلى والدها، هذا الرجل الذي أعزها ثم تخلى عنها بعد انفصال الزوجين. إنها تقوم بإثبات الحالة بأن تعامل كلبها كما عوملت، دون أن تعلّق أهمية، معتقدة أن ما حصل له ليس خطيراً. ومن ناحية أخرى، ألم يرحل والدها لأنها لم تكن

تمنحه قيمة كبرى؟ وفي التحرك نفسه، تعود إلى حادث الكلب وتؤكد لي أن ذلك ليس حادثاً حقاً، طالما أن الكلب له ازدواجيته وأن حكايته الدرامية هي نفس حكايتها.

ويسمح خط سير الحيوان في إعادة التسجيل المتتابع للآثار المحرّمة في الجلسة. وهو يضع بهذا توقع الفترات التي تبدّل فيها جنون الصلة بالأداة الأولية، فسبر التبعية، وهجوم الجسد الأمومي، وصراع التناقض الوجداني مصدراً حيوياً للصلة الجسدية للأم ومركباً لا يمكن تفاديه للحركة الأوديبية.

ولعل تصوير الحيوان المستأمن جداً والأبعد هن العدوانية، والذي يختم هذه الجولة، يمثل أيضاً الفترة التبدلية، حيث يرجع تثبيت الأداة الأولية بعد الاكتفاء من الصراع مع هذه الأداة. وحيث ينعقد ثانية إدراج دافعية تتميز بشدة تبايناتها، دافعية «بدانية»، بالمعنى الذي ميّزه «فرويد» عن دافعية المتحضرين.

وحيث يمكن أخيراً لتبديل الصلة بجسد الأم أن يصبح التوطئة لارتباطات أخرى، أكثر تصالحية مع جنون أمومي يصبح أكثر اعتيادية.

أما المشهد السريري العيادي الثاني، فإنه يشتمل على عدد من العناصر المشتركة مع سابقتها، كتمنيات الموت للحيوان، إنما محققة هذه المرة، برهان الصلة بالأم، في العقدة الأبوية،

المتمحورة على الصلة بالحيوان، وتثبيت الصراعية المجسدة لهذه العلاقة، في صعوبات حل العقدة الأوديبية. وإنه من خلال ذكرى الطفولة يُستذكر حادث الكلب المحبوب من البنت والأبِ. وكان السبب في ذلك قلّة التبصّر الأمومي. حيث تركت الأم الكلب يجتاز الشارع، ليلحق الطفلة التي ترافقه إلى المدرسة واتخذت هي ممراً نفقياً. فمات الكلب مدهوساً. وقد طُبعت الصدمة، خلال الجلسة، بطابع التأثر والحزن والحنين، لافتة النظر لطباع فظ وهيئة سليمة. وضمن هذا المناخ العاطفي، وصوت، إلى حينه، مكتوم من الحنان للأب، يصبح قابلاً للمواجهة بالنسبة للمريضة.

كيف تمكنت الصلة بالأم أن تمنع تحرك البنت هذا نحو الأب؟ وبماذا الحيوان بموته المبرمج لاشعورياً، يعني «الجنون الأمومي»، على الأقل جنون الصلة بالأداة الأولية؟

وهنا أيضاً، حنان الكلب والحنان من أجل الكلب كان محور الإفراط في التحضير perlaboration، لكن هذا الحنان يظهر كصيغة لتسوية. ويوصف بتصورات أبوية بقدر ما هي أمومية. ومما أضفى، بنظر المريضة، قيمة للحيوان لا بل بديلا له، يكمن في وجوده المتواصل والمواسي والمتسامح، وانتباهه غير الحدسي وغير المصلح. وبقدر ما الخصائص تزول عنه لدى الغياب المتكرر للأب، وتحكّم الأم، بقدر ما الخصائص في آخر الأمر، قابلة للتبدّل في أمور اختلاف الجنسين. وفي الحالة

الراهنة، لعل أثر الصلة الشهوانية بالأم تطبع وتعيّن الإسقاطات المتتالية والتي يكون الكلب حاملاً لها. وبإجراء تخفيف للحنان المرتبط بالحيوان، يسمح العمل في الجلسة باستخلاص عدة مستويات، للصراعية في هذه الصلة بالأداة الأولية. وبنفس الوقت، يسجل حدوداً للاستعانة بالحيوان لإعادة إعداد آثار الصلة بجسد الأم في التشكيل الأوديبي لهذه المريضة.

وهذه المرة، لا يلتزم موت الكلب لا بشعور بالذنب ولا بالخجل لدى المريضة. فشعور إهمال الحيوان بغية توظيف التعلم المدرسي يثير حنينها لأوقات اللعب المتواصل معه، خلال الطفولة الأولى. وتترافق صدمة الحادث في روايتها، مع الصورة المحركة للعواطف الحزينة للكلب الذي ينظر إلى الفتاة الصغيرة وهي تبتعد عنه، قبل أن يعرّض حياته للخطر. وهنا كما هناك، تُسمِع المريضة استذكاراً يفطّر له القلب عن الحيوان والطفلة، أو بالأحرى فراقهما عن بعض. ويفتح الاستذكار فترة من الأسف وليس تبكيت الضمير، أسفاً على استمرار الصلة وتوظيفاً بلا ثغرة أو صدع. وربما كذلك، أسفاً من صلة بلا صراع مع الأمجية، حيث كان يمكن أن يمتزج حنان الأب بحنان الأم، دونما كثير من التمايز.

وفي خط إشراكات المريضة، يظهر استخداماً ثانياً ترانسفيرياً للحيوان. فذروة التناقض الوجداني إزاء الكلب

أسفر عن تمنٍّ لموت محقق. إلا أن جذر هذا التناقض الوجداني يتبيّن أنه يختص بخط للإشراك، أكثر غموضاً، وهو وحده اختلاف الجنسين (العرقين) بين الأبوين، وتعلق الطفلة بكل منهما. فجلد الكلب الكالح اللون، وبشرة الأب، الرجل الملون، وبشرة الطفلة الخلاسي (من أبوين أبيض وأسود) تثير كلها أيضاً رفض الأم. وهكذا فتغيير الأداة يوقع الصراع منذ الصلة الشهوانية، بالنسبة للمريضة. وفي بادئ الأمر تُصوَّر التسوية والتراخي بين علامة الصلة بجسد الأم (اللمس) والعشقية المقدرة للأب (الحب له ولبشرته)، يتوقف الحيوان في الفترة الثانية هذه لشغل هذه الوظيفة. عندما يتحول اللمس تماماً إلى رغبة نحو أداة الحب الجديدة، يتخذ موت الكلب معنىً لاشعورياً، بالنسبة للمريضة، وتحوّلاً مستحيلاً أو ممنوعاً (يُظهر بقوة الأحجية الأمومية التهديدية). وفي هذا العلاج، هل يقوم الحيوان مقام أداة قتل موجهة للحفاظ على الصلة المحرمة للأم سليمة؟

رهان الجنون الأمومي يكون هنا متلازماً بتقطيع الكلمات المنوطة بالحادث وبنوعية الأسف الذي يسبغ رواية الصدمة. ويطرأ الحادث فجأة في الفترة التي تعدل فيها المريضة الطفلة توظيفاتها كأداة (مدة الدراسة في المدرسة)، لا بل خياراتها للأداة (الأب). وعندما تعود المريضة لذكرى الحادثة في الجلسة، تواجه من جديد الصلة الشهوانية مع أمها، على

صعيدين: صعيد الطفلة التي تكبر وصعيد الطفلة التي تتوجه نحو الأب. ويتخذ موت الكلب عندئذ معنىً مهدِّداً ازدواجياً مترافقاً بأبجية الأمومية المحرمة. وينشر التحرك الترانسفيري في ذلك مختلف المستويات المصممة على الحيوان.

وتُبرز الفترة الأولى من الرواية، أبجية أمومية يكون الحداد من أجلها باحتكاك اندماجي مع الطفلة مستحيلاً. والانفصال الذي يطرح مشكلة صيغة الصلة الشهوانية بالطفولة الأولى، يحوّل الأم للمرة الأولى إلى قاتلة. وبقتل الكلب، تقتل الطفلة التي تكبر. وفي الترانسفير، تشرك المريضة الموت الذي حدث للكلب بتمني أمها في الاحتفاظ بها بالقرب منها، وفي هذه الفترة من التواصل والتقارب الشهواني للبدايات، التي لا مجال لمقارنتها بفترة الانفصال. وهكذا فالإيعاز التهديدي للأم يتخذ اتجاه عدم الابتعاد عنها لعدم فقدانها، أو وجوب التضحية بالطفولة إذا تم الافتراق. فيما الحزن والحنين اللذان آثارهما الاختفاء المأساوي للحيوان، يمكن أن يفسح المجال لحداد ناجح. وبالفعل، يؤديان إلى تثبيت المريضة بالأداة الأولى للحب. ولعل مادية الحادثة، وصخب الصدمة بالاحتكاك بالجسد يشكل هو أيضاً نقطة استدعاء صادمة لتعلق مرسّخ الجسد. وفي هذا التحرك في الجلسة، يتخذ استذكار الكلب الذي ينظر للطفلة وهي تبتعد قيمة أسف على فترة عابرة اختفت. ويصبح موت الكلب كناية عن تحوّلٍ جارٍ يتبدد فيه بل

يكون التضحية فيه بالتعلق الأصلي. ويستجيب لهذا الشكل من الجنون الأمومي، الذي نعثر عليه في الترانسفير، شكل جنون الصلة بالأداة الأولية لدى المريضة. وبرجع الصدى إلى الحنين القاتل للأمجية الأمومية، تكرس تأثرات المريضة، الحنونة من طرف واحد، والقاتلة بلا آثار غضب، تشرب آثار شهوانية غير قابلة للتنقل. ورغم كل شيء، أسف موت الكلب، وليس فقط وجوده، يدل أيضاً على رفض الإحراج المترافق بتهديد الأم والحفاظ على الصلة معها أو أن تكبر.

وتتوضح هنا رواية الصدمة أولاً بارتدادها بنوعية التأثرات، وتراكميتها وصفتها السليمة جداً. ويظهر فيها الحيوان ممثلاً لجسد الطفلة بأشد قربها من جسد الأم. وأسف موته يدل على تمني ممنوع لانتقال هذه الصلة.

ومن خلال الحيوان في الجلسة، أكدت المريضة من جديد كم أن العثور على أشخاص كانت قد انفصلت عنهم من «جسد إلى جسد» داعمة فكرة أنها تثمنهم بنظرها، رغم التهديد الذي فرض من تخليها من أجل أن تكبر. والتنقل من «جسد إلى جسد» يبقى إشكالياً. بحيث أن الإحراج المتعلق بالتهديد لا يوحي بأسف المريضة، أي بحيث أن إسقاط التهديد على أمجية الأم التي تمنع الانفصال عنها لا يُستعاد في الترانسفير ليُعد فيه. ولهذه الصعوبة الإعدادية، بلا شك، صلة مع البعد الصادم للتهديد الأمومي.

وتتضمن حادثة الكلب بعداً ثانياً، ويكمن في التراجع الذي يتحوّل من حب الأب لصالح الصلة الجسدية بالأم. وتصبح الأمجية الأمومية، قاتلة الطفلة لأنها تكبر، ولأنها تحب الأب وتشبهه. ويتعلق عندئذ الجنون الأمومي بعد الانسجام المفترض بين الارتباط الأوديبي وأثر الصلة الجسدية للبدايات. وفي هذا المنظور، يَسِم الموت الصادم للحيوان المحبوب بالخطر المترافق بتهيج وتحريض الانتقال إلى أداة جديدة للحب. ويصدر التهديد عن صلة تعلق لا يتعين أن تصبح «نموذجاً أولياً للعلاقات الغرامية اللاحقة». وهكذا يتخذ أسف المريضة رغبة لأداة جديدة للحب وتخلٍّ عن هذه الرغبة، بالملائمة مع التمني الأمومي. وتورد شدة الأسف، شدة الصراع، لكن عودته السليمة في الإيحاء في الجلسة، يعني أيضاً صعوبات حالية أيضاً لتيارٍ حسي أكثر انفصالاً عن التيار الحنون،وفي فترة اختيار الأداة يبعد الحيوان عن الطفولة. ويجد الإيعاز التصفوي للجنون الأمومي هنا صدى في جنون الصلة بالأداة الأولية. وينطبع الخضوع للإيعاز بإخماد الرغبة العشقية للأب، فعلياً في حنين بلا مقابل للعدوانية، متذكّرة أو حالية، بالنسبة للأم القاتلة. ومن جديد، الإصرار على صفات وادعة للكلب، ووفائه المحبوب الذي يجرده من السلاح لدرجة تعرض حياته للخطر، يصنعان منه ضحية محددة لتحرك أعمال انتقامية مُسقطة على الأم. ولا يجد هذا التحرك للأعمال الانتقامية حدوداً ترانسفيرية، لا في أمجية الأب الحامي ولا في تحرك

كراهية للفتاة. ما هو المكسب في تعليق تحرك التناقض الوجداني في الصلة بالأداة الأولية وهل نرده ثانية ضمن حوادث الجلسة؟ هذه المرة أيضاً، يوضع على بساط البحث مسألة إسقاط التهديد على أحجية الأم القاتلة.

هذا التحرك نحو الإرجاع، والمحمَّل بآثار الصلة الشهوانية، ليس، رغم كل شيء، أحادي المعنى كما يظهر في البدء. إنه يتلون في الجلسة من استدعاء للجزء الثاني من إشراكات المريضة والمتعلق بصفات الكلب، أداة الكراهية القاتلة للأم، وفي الحالة الراهنة، جلده. إن الحيوان لا يجسد فقط فترة الطفولة البعيدة، بل أيضاً نوعية الممارسات الجنسية التي تخيف الأم. والتشابه في جلد الحيوان والأب والبنت مستهدف أيضاً في عملية القتل، هذه القرابة مسجلة على الفور في الصلة بالجسد. وأعلى من الانتقال المتماهي بالآثار، هو تجسيدية الآثار المأخوذة بجزء منها من جنون الأم. وبربط التثبيت بالإرجاع والنكوص، يمنع هذا الجنون أي انتقال وعلى الأخص أي تحوّلٍ للآثار الجسدية. وفي عبارات أخرى، يثبت الصلة الشهوانية لجسد الطفولة معها، ويمحو أي أثر للأب على هذا الجسد. وبإشراك أسف وجود الكلب مع أسف جلده، تؤكد المريضة من جديد تعلّقها بالجلوس الحسي للمس الأمومي، إنما أيضاً بالعلامة الجسدية للأب، أداة الاندماج والرغبة بالنسبة لها. وهنا يجد الجنون الأمومي تنصّلاً. هذا

الجنون «صنع جلد الكلب»، هو في رفض ضياع الأدوات التي كانت فيما مضى تمنحها الإشباع. وتصبح قاتلة لأن أفعال الرعاية تجاه الطفل جعلت منها المثير الأول وهي ترفض التخلي عن ذلك. وبالإستجابة، أسف المريضة، الذي «يمتلكه الكلب في جلده»، يكوّن إعادة توفيق وتكييف للصراع الأوديبي، ومقاومة للنفوذ الأمومي، والبحث عن إعداد آخر للصلة بالأداة الأولية معرّض للتصالح مع الأداة الأوديبية.

ويبقى رفض استبعاد حب الأب من سجل الجسد، ومنع الأحاسيس الجنسية التي يمثلها، إشكالياً في الجلسة رغم كل شيء. وأيضاً هذه المرة لا يتخذ بُعد الأسف، بصورة مباشرة، جزءاً من الإيعاز الأمومي، وفي الحالة الراهنة، يتوجب توجيه الحب الحسي نحو الأب للتمكن من المحافظة عليه شهوانياً بالنسبة للأم. وصراع الممارسات الحسية يُدرج في صراع جسدية الآثار ويتخللها. وكما في فترة الإنفصال، وحده الإحراج هو الذي ترفضه المريضة. ولا تتهيأ مسألة تحويل الآثار بعيداً عن الحل، المفطّر للقلب بالنسبة للمريضة، وعن حفظها معزولة رغم كل صراع.

مرة أخرى يجد رجاؤها، بالقدرة على نقل وتحويل الصلة بالأداة الأولية، والتي حددتها في أسفها على مستويين، أحدهما في استحالة إعادة في الترانسفير، وإسقاط التهديد على أحجية الأم، وهذه المرة بتنافس مع حب الأب.

ويستجيب الأسف في فترتين خلال الجلسة مع مستويين للتهديد، وهما بالذات محرَّضان من العقدة الأوديبية. وما يبقى معلقاً رغم كل شيء، هو المصير الترانسفيري لهذه الأمجية الأمومية مزدوجة التهديد، عندما لا تحل محل الحيوان. تارة متمثلاً بالأب، وتارة بالطفلة وتارة بالمحلل، يجسد الحيوان التلونات من «جسد إلى جسد» مع الأمجية الأمومية، التي تتكيف، وتغتاظ وتلطف من مسار الجلسة. ويبدو صراع الإرتباطات يهدأ أولاً بأول ريثما، عمل التثبيت والنكوص المدعوم في الترانسفير، يصدر تأثيره. ولهذا الإسقاط على الحيوان حدوده. ويتخفى محور الحنان، المرتبط بصورة الحيوان، لفترة ما، خلف قناع التيار الحسي. ولا يسمح انتقال الصراع الأوديبي على جلد الحيوان مطلقاً في حله المشبع في الترانسفير. فمقاومة الحل الأمومي القاتل يضمن تحرك الفتاة نحو الأب، لكن هذا التحرك يُختتم، خارج الجلسة، بحركة من حنان الأب، وليس بحركة تنافس عدائية، بل قاتلة، من الأم، ضمن الجلسة. وهكذا يبدو البعد العشقي البحت والتناقض الوجداني للحركات الدافعية الذي يولده، غائبين عن الترانسفير. وربما هي طريقة المريضة في المداراة المباشرة من «جسد إلى جسد»، كما لو أن الأمر لم يكن متعلقاً مطلقاً بجنون الأم القاتل إزاء الحيوان، إنما بالجنون القاتل للفتاة إزاء الصلة الجسدية مع أمها!

ما هو نظام هذا اللجوء إلى الحيوان في اقتصاد الجلسة؟ إن رجاء الموت المحقق للحيوان، يهدد تحولات الصلة الشهوانية للأم. ويمثل الحيوان الضحية، الطفلة التي تكبر وتلاقي الأب. وتظهر كتصوير مقلوب للطوطم، طالما ضمن الجلسة تجسد الخطر الذي يؤدي للموت المبكر وغير المحدود والمترافق بآثار الأبجية الأمومية للبدايات. وحتى عندما قد نحدد هوية هذا التهديد بواسطة الإسقاط، فإن الحيوان الضحية لا يصادف هنا المحرم. وعلى الأجدر يُظهر خوف المريضة أمام تطلعها الخاص نحو انفلات دافعي يقلقها. التضحية بالطفل أو بالأب يخفي عندئذ الرغبة بالتضحية بالأم المهددة، كعبارة وحيدة متناوبة للتمكن من مغادرتها. والبعد الصادم للنفوذ الذي تمارسه يعطي هذه الصفة الأساسية للهجوم، المرغوب به بصورة لاشعورية، للجسد الأمومي.

وإذا احتفظ الحيوان هنا بقيمة طوطمية (رمزية)، ففي المعنى الذي يدل به على رغبة قتل الأم مرتكبة المحارم وتضحية بالقسم الذي يحتوي على هذه الرغبة المقلقة. وبالنسبة للمراعاة الفرويدية للطوطم، يشكل حيوان هذا المشهد بعداً مزدوجاً، من ناحية تتوجه رغبة القتل نحو الصلة مع الأم(قتل الأم)، وليس الأب (قتل الأب)، ومن ناحية أخرى، يكمن التحريم في قتل رغبة قتل الأم، وليس في منع قتل الأم المهدِّدة.

وهل يتطابق المعبود بصورة أفضل مع الإستخدام الترحيلي

الترانسفيري للحيوان،في هذا القسم؟ الحيوان هو محط إسقاط التهديد القاتل المترافق مع الأداة الأولية. ورفض التحرك العدائي الذي يمكن أن تجره هذه التدميرية يطرح تساؤلاً: لماذا، في الترانسفير، الإيحاء بالموت الحادث للكلب لا يُصدر إلا الحزن والحنين؟ وما الذي يمنع الأسف من أن يتحول، خلال الجلسة، إلى تأثير بتأنيب الضمير أو باللوم الذاتي، بل بالغضب؟ ويبدو الإفتراض بإسقاط قاتل للفتاة المتحولة بالإسقاط قاتلة لأمها واضحاً، لكن هذا البعد من الجنون، بين الأم والبنت، يغيب عن هذا القسم. فاختيار الأداة الكلب، كدعامة تخيلية، يقصيه، سواء بحنانه أو بتبعيته.

هذا الرفض للشراسة وللدوافع الحية قد يقارب ذلك من الطاغوت (المعبود) ولا يمثل الحيوان، جزئيا، إلا انتقالاً. إنه يمتحن على الأخص إسقاطاً وتبايناً، وخلف الأم التي تقسو على حيوان الطفولة، والمحبوب من الأب والبنت، ترفض الفتاة رغبتها في القسوة على أم الطفولة (جسد الأم)، لكي تنفصل عنها وتتمكن من العثور على الأب. وحده هذا الـ «الجسد إلى جسد» القاتل قد يسمح بمجابهة التأثير الصادم. وبالفعل، حل الحيوان المعبود هو الاقتصاد. وبتفادي إعداد إسقاط التهديد، في الترانسفير، على الأحجية الأمومية، تحاول الاحتفاظ بإيمان مزدوج،أولاً إمكانية تقابل أداتَي الحب، وثانياً ضرورة تعديل الأول لجعله منسجماً مع الثاني. وبصورة متباينة، يتضمن

الإسقاط على الحيوان هذا التباين، ضمن المقياس الذي لا يحدث فيه بصورة كافية إبدال الدوافع العدوانية. وفجأة، يبقى اقتصاد المعبود هدفاً للتهديد الذي ضده يفترض أن يُبنى، دون التمهيد لعلاج آخر للإسقاط. والفشل الجزئي، دون تعبير بديل عن التباين يدل على حد الاستعانة بالحيوان في العلاج.

وهنا أيضاً، نجد الحيوان الأثر المميز للصلة بالطفولة، رهاناً للجنون الأمومي، ويكون اتجاه التحول لهذه الصلة خلال الجلسة. إنما هنا أيضاً، الاقتراب من الصدمة، يعني التدميرية المُحتواة في الصلة بالأداة الأولية، تفترض إعادة تسجيل ترحيلي مباشر، وهنا حيث الحيوان يستبقها ويؤجلها في آن واحد ضمن الجلسة.

هذه القدرة للحيوان على إحداث مفصلة بين جسد الأم وأثرها في نفسية المرضى، وهذا المكان حيث استُهلك الانفصال، إنما لم يُكتسب أبداً، هذان الشكلان يرسمان تعرجات الجنون الأمومي، بمصدمه وتنوعاته.

وبانعكاس الصيغ التقليدية لصلة البدايات، أثناء الجلسة، يسبر الحيوان مسالك تحويل رسو الجسد، ويسجل في جسد الموضوع المعني. تارة أداة توسّط، وتارة معبود، وتارة انتقال استعاري أو مجازي، يكثف في تعدد معانيها، الحركية والتنوع الممكن للآثار إنما أيضاً طابعها الذي لا يُمحى، في قدَر النفسية كما في قدَر العلاج. وهكذا يدل التعيين نفسه على الصلة

الترانسفيرية، عندما تتوجه نحو الجذور الجسدية للعقدة الأوديبية. في هذه الجهة، وأحياناً بالتعارض مع الإدماج المثلثي للتحرك التناقضي الوجداني، يعيد الحيوان إبراز القسم البدائي للتعلق بالأجساد، لدى كل واحد منا. في تاريخ العلاجات، تدل على وجود هذا القسم. ومقاومة النقل الترانسفيري، لمصلحة الإدراكي، تشير إلى بعد الصدمة غير قابلة للإعوجاج لهذا القسم نفسه. كم هو ثمين جسم الأريكة هذا. وهنا حيث تتجلى، تذكر، كم أن الترانسفير، هذا «الجسد لجسد» في العلاج، يفترض أن هذا القسم لا يبقى في صورة منحوتة. لكنها تذكر أيضاً كم هذا الجسم، لكي لا ينغلق في تكرار الموت، يجب أن يتمكن من التشكل على ما هو قابل للتنقل.

وعلى هذا القياس، تصوير الحيوان، المُستدعى في المشهدين هو أيضاً تثقيفي، فعندما تثبت الصدمة بقوة في الناحية البدائية، وعندما يعيد ما له من وظيفة شهوانية استقراره بتواصلية كبيرة، وعندما يختلط الحيوان بقوة مع ما يقوم بنقله، وعلى حساب ما يمكن ترحيله، عندئذ يقاوم الجنون الأمومي بقوة أكثر تحوّله. إنه أيضاً الوقت الذي فيه تحافظ الصلة بالأداة الأولية كثيراً على ما اشتمل هذا الجنون من روعة مقابل، ناحيته الاعتيادية.

هذه الناحية الاعتيادية، والتي مع ذلك عسيرة على الإحاطة، بما في ذلك الصلة بجسد الأم، يبقى في جزء منه،

بانتظار هاتين الروايتين للعلاج، والمنسوجتين حول هاتين القصتين للحنان الحيواني.

أيتعلق الأمر بمتكأ بنائي، متكأ للصدمة، مسجل في تصوير الحيوان - وفي الحالة الراهنة، في التصرف الترانسفيري واختيار الأداة التي تظهره - أو بالأحرى، هل هي فترة من هذه العلاجات، تعود للأصل أكثر من غيرها من الأطوار؟ التساؤل مفتوح. والمشهد الثالث، مستوحى تماماً في خط هذا التساؤل، ويقترح تصويراً آخراً للحيوان وتأثيره الطوري. وبه، يبرز ثانية التساؤل المرتبط بالحيوان خلال الجلسة، ربما من أجل إيضاح مختلف في عدة حالات، وربما للتفكير بشكل آخر بالطريق التي ترابط بها، وهنا كما هنالك، جسم الترانسفير ووجوده خلال الجلسة.

وفي المشهد الأخير، إختيار الحيوان لا يركز الإعداد حول حنان ضعيف الصلة بالتناقض الوجداني. وعلى الفور، تستدعي الممارسات الحسية، والشراسة، وعدم الرزانة للهر الدافعية في بعدها الغرامي العشقي.

التكرارات المتعلقة بالجنون الأمومي لا تترابط مطلقاً حول الصدمة والقتل ورفض الإخصاء. فالجنون، هذه المرة، يترافق بآثار ضيق الأم. ويتميز بآثاره الكابتة لعدوانية المريضة، على أرضية المنافسة العشقية. وبالفعل، تنتظر الأم، كفتاة صغيرة مهجورة، المساعدة والحماية من إبنتها، جاعلة من هذا

العمل قابلاً بصعوبة للمجابهة الأوديبية. ويشكل تصوير الهر الفترة التبدلية للعلاج، حيث أن التأثر الترانسفيري للحيوان يحول الجنون الأمومي، من قلق الانفصال إلى قلق الاختراق. ومن خلال الهر وممارساته الحسية المسبوغة بالشراسة، يمكن بالفعل، الإعراب، للمرة الأولى على مخطط واعٍ، عن أهواء تخيلية غرامية وعدوانية للمريضة إزاء الأمجية الأمومية. والذي يثقل من تحركها نحو الرجل ـ خوفها من الإقحام الأمومي أمام رغباتها الإيجابية والمُخصية ـ يضعف. وتصوير الحيوان، عندما يحول آثار الصلة الجسدية بالأم، يصبح هنا عامل إدماج للدافعية بالتناقض الوجداني، في عقدة أوديب المريضة. وفي نفس التحرك، قدرتها الجديدة على الاقتراب من التنافس بين النساء، على أرضية عشقية تتوطد.

لكن الإستعانة هنا بالهر، ليست فقط عاملاً للمثلثية، فهنا الجنون الأمومي يمنعها. ويُفضل أيضاً إعادة إعداد الآثار على التحدّر الجنسي المثلي للعقدة الأوديبية للمريضة. والممارسات الجنسية للهر تترافق بعدم تحفظه. وهذه المرة، يعيد تصوير الحيوان المريضة إلى فضوليتها الخاصة بالنسبة لغرامياتها الذاتية. ومن خلال الهر، تتجلى أيضاً رغبتها الحميمية وتقرّبها الحسي من الجسد الأمومي. لعل الأحاسيس الجنسية للنساء، وبين النساء ما يحيي هذا التحرك لإعادة التقييم لآثار صلة البدايات، وبمنأى عن الضيق الأمومي. وهكذا تتخذ المريضة

المنفعة كمقياس لتواطؤ جنسي مثلي، يساند العشقية التبادلية الجنسية.

كما يساند الاقتصاد الترانسفيري المترافق بالحيوان مجموعة هذا التحرك. وبالفعل، في هذا المشهد الأخير، يجري الحيوان بنفسه عامل الترانسفير، ومن الممارسات الجنسية للقطط إلى الممارسة الجنسية لهر المحلل، ما يمهد السبيل للترجمة الأولى للترانسفير. إنه ليس انتقالاً، إنه إجراء لانتقال. إن علاقته الجزئية بالدافع، رهان الجنون الأمومي، وهو خاصة تقرير مرسل، يتصالح رغم كل شيء مع تذبذب ما استعاري مجازي. وهكذا يساهم الحيوان بجسم الترانسفير، أي بعودة بصمة آثار الجنون الأمومي إلى عنوانها التخيلي الشغفي.

وللوضوح، وضع الجنون الأمومي قيد العمل أو جنون الصلة بالأداة الأولية، في هذا المشهد الأخير، يشكل عدداً ما من الإقصاءات مع سابقيهما. وللوضوح، التجسيد الأولي بواسطة الحيوان، لا يمتلك في ذلك نفس النظام الطوري ولا نفس الصيغة الترانسفيرية. ويسبغ قلق الإخصاء وصلاته بالشعور بالذنب على الفور صلة جسد الأم ورهان تبديله. ولهذا السبب، جسم الترانسفير، وهذا «الجسد إلى جسد» للبدايات مع الأم، يبقى نقطة التسرب وهدف العلاج. ولذلك، طاقة الترانسفير في تبنيها ترسم حدودها ومتكآتها وتنقلاتها، إنما دوماً على عمق لما يتعذر الإحاطة به.

وربما هو هذا البعد الذي يقارب بين هذا المسار السريري وانشغالات الفكر البدائي، وبين الزنى وآثاره. وربما يمثل الحيوان هذا الانضمام، المحتمل دوماً والمكتسب أبداً للممارسات الجنسية، والتأثير والعشقية، ما ينقل أداة الحب الأولى إلى الثانية ويحرك هكذا ما كان يعتبر لكل فرد جنونه الأمومي، ما فوق الإعتيادي أو الإعتيادي.

IV

الأم مجنونة بما فيه الكفاية

هيلين دافيد

يا له من عنوان مجنون! بعيداً عن الشاغلين بعلم النفس، من يُقدَّر له الحكم على هذا العنوان بصفته منطلقاً من الذات؟ كنت عند مصفف الشعر الخاص بي وأحاول تفسير أفكاري لفنانة بالرسم، وهي أم لتوأمين في الثالثة من العمر. وما أن استخدمت عبارة «الجنون الأمومي» حتى أحسست عندها تصلباً دفاعياً، ذلك التصلّب لأحد يتلقى ذلك وكأنه حكم، وإثبات لحالة أمٍ سيئة، وبعيداً كل البعد عن الوهم وعن التقييم الإجتماعي للأم المتكاملة. هذا الجنون الأمومي الذي نلقاه كل يوم، وهذا الجنون العذب، وغير المرئي في الغالب، والذي يسكن مبكراً أو متأخراً عند جميع الأمهات، يخيف ويربك، ويدعو إلى التساؤل، حتى عند أكثرهن نعومة وإبداعاً.

وبالمقابل، أولئك اللواتي لا يحسسن بهذا الخوف، يقلقننا نحن، المختصون بعلم النفس.

إن الجزء المجنون من أموميتنا، هو ذلك الجزء الذي يهرب منا ويهرب من الإحساس ومن الفعل المباشر للرعائية الأمومية. ومسبقاً، داخل أم المستقبل، الطبقة اللاشعورية من الدوافع المرفوضة والمكبوتة، والممنوعات المحرمة والرغبات المتحركة هي أكثف من مجموع الأسباب والظروف الملتمسة بصورة عادية من أجل تقبل الطفل: «أشعر نفسي مستعدة، وقد وجدت الأب المثالي، ولدي استمرارية في العمل بدوام كامل، وسيكون من حقي إجازة أمومة مدفوعة الأجر، كما قد أنهيت دراستي»، هي ذي البارامترات المستوحاة غالباً لشرح اختيار الإنجاب وأفضل فترة لقضاء هذا الفعل. يجب على هذا الطفل أن يدخل بصورة صحيحة في الأجندة التي غالباً ما تكون محملة فوق طاقتها لدى النساء الشابات وهن في أوج ارتقائهن في عملهن، أولئك النسوة اللواتي تحسّن موقفهن الاجتماعي كثيراً خلال العقود الأخيرة.

وتعيش النساء منذ خمسين عاماً، ثورة جنسية واللواتي بفضل الأقراص المانعة للحمل وغيرها تمكنَّ للمرة الأولى في تاريخ الإنسانية، من تحسين التخطيط للفترة التي يرغبن فيها بالإنجاب. هذا التغيير البارادیغماتي الاجتماعي في قلب العلاقات مع الرجال ومع الأمومة رأساً على عقب،

واضعاً في متناول النساء اختيار ممارسة رغبتهن في أن تكون أماً أم لا. كما انتهى زمان الزيجات «القسرية»، والمعدّة مسبقاً، والحمولات المتكررة، والأطفال «الذين يأتون بسرعة مذهلة»، وبعدد كبير. إنها إذاً إنجازات كبرى بالنسبة للنساء اللواتي استطعن الخروج عن طاعة الزوج والمجتمع الذي لا يريدهن إلا أمهات، خضوع لجسد فائق الخصوبة ولفترة تطول جداً.

في «كيبيك»، خلال الأعوام 1930، 1940، 1950، كانت النساء تلد بانتظام كبير، عشرة، اثنا عشر، بل خمسة عشر ولداً وحتى العشرين خلال سنوات خصوبتهن. ولم تكن السلطة الدينية الكاثوليكية الحاضرة في كل مكان عندنا لتترك الخيار للنساء في رغبة الأطفال أو عدمه. فنداء الطبيعة يجب أن يُحترم وإلا تعرّض نفسها للخطيئة المميتة. فترف التساؤل في أن تود أن تكون أماً أم لا، لم يكن موجوداً. المخرج الوحيد لعدم الإنجاب كان في الانخراط الديني، أو في ممارسة مهنة التعليم أو التمريض، مبقية نفسها كما كان يُقال في ذلك العهد «فتاة عانس». وكان ذلك قبل الثورة الأنثوية، وقبل القدوم المكثف للنساء على سوق العمل. ونساء العمل اللواتي عرفتهن، لم أكن أتحقق من ذلك في تلك الفترة، كن راهبات دينيات، نساء تخلين عن الأمومة تخلياً قاطعاً. وعدد منهن، كن متعلمات ومثقفات، ويتسلين «بمهارة» بجميع مراحل التعليم ما قبل

الجامعي. وقد اخترن حياة بلا جنس وبلا رجال. وفي القطب الآخر من «الخيار» الأنثوي، كان هناك أمهاتنا اللواتي يقمن في البيت، واللواتي أنجبن المزيد من الأولاد، واللواتي تعني الحياة لغالبيتهن، الإدارة الحسنة للبيت. ونساء لا جنسيات، من جانب، إنما مع إشباعات ذهنية، أو مهنية، ونساء أكثر انفراجاً من الناحية الجنسية من الأخريات، مع مكافأة أمومية تلقى الكثير من المديح، هل يمكننا التسليم، بأنه من المستحسن الحفاظ عليهن أسيرات نظامهن وحالتهن. ألم تكن رؤية غزلية رعوية لأم تكرس نفسها كلياً لعائلتها ولذريتها؟ المشهد تغير تغيراً واضحاً وجذرياً منذ ذلك الوقت.

ماذا حلّ الآن بالأمهات وبانفراجهن المفترض الأمومي والجنسي في السنوات الأخيرة؟ لقد فتحت لنا هذه الثورة جميع الأبواب على مصراعيها للحرية الجنسية، والمهنية، والشخصية، ممكّنة النساء الشابات، بنوع ما، من تحقيق جميع طموحاتهن من كل الأنواع، وعلى جميع الصّعد. إنهن الأفضل في المدرسة، كما يمكنهن التطلع لمهن أعلى دخلاً وقيمةً. إنهن الأكثر غلبة من حيث العدد في المهن التي يُقال عنها معطاءة، وفي مهن المساعدة الطبية، والتي من ضمنها المختصات بعلم النفس، علاوة عن كون تعدادهن يتزايد شيئاً فشيئاً في المهن الذكورية التقليدية. وهن غالباً يتقاضين أجراً أفضل من كثير من الذكور في عمرهن. إنهن يدرسن في الجامعة لفترات تزداد أكثر فأكثر،

وينخرطن في مهن مطلوبة. وما الأمومة في كل ذلك؟ حسناً، في كل ذلك ثلاث بارامترات تدخل على الأغلب دخولاً سيئاً وهي: الرجال والأولاد والعائلة المعاد تأليفها. وهذه الأخيرة، هي بارا متر يدل على إحدى التغيرات الجذرية في مجتمعنا، إنه تغير العائلات المعادة التأليف والتي تلعب فيها النساء غالباً، دوراً أكثر فأكثر كخالة زوجة الأب، ولأطفال قدموا إلى حياتنا من باب خياراتنا العشقية، وهي سمة عصرنا المتحرر ولمسيرة متوحدة تحمل علامة عدم التبدل[1].

إنما بعودتنا إلى الرجال، يمكننا تأكيد أن الغالبية الكبرى للأطفال لا زال يتم الحمل بهم بطريقة تقليدية جنسية بين رجل وامرأة، إنما هذا ليس موضوع حديثنا، كيف نجد إذاً شريكاً غرامياً ملائماً مع توقعاتنا، حينما تبلغ مقتضياتنا وإنجازاتنا الشخصية مستوىً كمستوى عدد من النساء الشابات زرعن خلفهنّ أصدقاء تخلّو غالباً عن مسيرتهن المتقدمة في الدراسة؟ وأين هم الرجال في كليات طالما تواجدت الفتيات فيها؟ إنهن يجدنهم أقل بأقل على المقاعد الجامعية، ولم يدع لهم ضغط

(1) V. Laflamme, H. David (2002), «La femme a-mère: maternité psychique de la marâtre», in *Revue français de psychanalyse*, t. XVI, nº1, p.103-118; J. Gosselin, H. David (2005), «Défis et contraintes des recherches sur les familles recomposées: l'exemple de la relation belle-mère/ belle-fille», in *Psychologie français*.

الدراسة والواجبات إلا وقتاً قليلاً للغزل. الزمن يمر، ويجدن أنفسهن في الثلاثينات ويتساءلن إذا سيجدن الرجل الذي يرغبن معه بالإنجاب، وإذا سيمتلكن الفراغ الضروري في أجندتهنّ من أجل إدخالهن في الوظيفة الأمومية.

هذه اللوحة، التي رُسمت على نحوٍ سريعٍ جداً، لم تكن كاريكاتورية وخاصة بالنساء الأكثر تحصيلاً دراسياً. إنها تشهد بتغير اجتماعي جذري جداً وسريع جداً، بحيث تستيقظ النساء غالباً على «أذية أم» تذهلهن. ما الذي فُقِد؟ وما الذي تم كسبه؟ من خلال هذه التبدلات الراديكالية في الفراغ النفسي الأنثوي والأمومي في العقود الأربعة الأخيرة؟ وكيف يجري الحديث عن جنون أمومي في الحياة اليومية في حين تتحدث النساء عن جنون قصير جداً من أجل وصف الثمن أو المقابل اللواتي يجدنه أكثر فأكثر غالياً، لدفعه لقاء هذه الحرية ولقاء هذه المسؤوليات الضخمة الملقاة على عاتقهن؟

ووفقاً لاجتهاد «كاترين سيروريه»[1]، الصعوبة الكبرى التي على الأمهات العاملات تذليلها هي ذات حكم نفسي في: «الإدراك السيء» وتضيف قائلة أن هناك اليوم، صنفاً جديداً من النساء تحت خطر الاتهام بالتحول العكسي، ويتخلين عن

---

(1) C. Serrurier, Éloge des mauvais mère, Paris, L'Épi, 1992, p. 105.

حياة مزدوجة طالما ناضلن في سبيلها. ويقلن أنهن قد ضقن ذرعاً من المرأة «السوبر».

هل الجنون الأمومي هو نفسه، وهل يطرح نفسه الآن بنفس الطريقة، في مقولة الأمومة الاختيارية، المخططة، أو المزروعة بطرق اصطناعية بفضل جميع تقنيات التناسل الموجودة حالياً؟ وما قول علم التحليل النفسي في هذه الأوضاع الأنثوية الأمومية الجمعية، المعقدة والمتعددة التعريفات؟ وهل يمتلك الجنون الأمومي في الحياة اليومية نفس بدايات أمهاتنا اللواتي لم يستطعن أن يمتلكن عموماً إلا أمومتهن كطموحٍ وحيدٍ، وكتوظيفٍ نرجسي وحيد؟

لعل شعور الدَّجل والخداع الذي يُعزى غالباً للنساء ربما لا يترجم هذا الـ «كما لو»، هذا الأمر الذي يقوّم بالذكاء، وبالنجاح، وبالأمومة، وهذا الشعور بالذنب للامتلاك المفرط، بواسطة جنسنا، كان علينا أن نظل أولئك اللواتي لا يمتلكن، أو اللواتي ليس لهن الحق في ذلك. فالإفراط في الامتلاك لدى النساء، ربما يكون «اتخاذ المكان» أو يكون الاهتمام بالآخر، أو الانخداع بمكانة مسلوبة من الآخر، أو من الرجال المضطربين، بصورة تناسبية مع نجاح في كل اتجاه للنساء، لتعديلات النظام الأساسي الذي كانوا يحتلونه منذ أمدٍ بعيدٍ حداً في المجتمعات الغربية.

إن كل طفل هو ثمرة رغبة مفترضة ناضجة بين رجل

وامرأة لهما من حيث المبدأ كل الوقت والفراغ لاختيار بعضهم بعضاً. وربما على الوصفة إذاً أن تكون أكثر مثالية لتضع طفلاً للعالم، في الرفاه الدراسي، والوضع المادي، وفي اختيار زوجين وفي متابعة طبية جيدة جداً والتي لم تتأسس عليها ظاهرياً الشروط التي كانت لأمهاتنا وجداتنا. فالحمل يشكل أداة لعناية طبية دقيقة جداً ومتطورة جداً من الناحية التقنية، والتي تسمح في معرفة جنس الطفل، وفي الكشف عن تشوهات كروموزمية، فيزيائية أو طبية. وعلى الطفل المولود أن يكون إذاً متكاملاً بالنسبة لأهله، طالما أنه قد يكون الإبن الوحيد لهم. وسيتوجب عليه أن يتحمل كل المسؤولية في تلبية أهله وغمرهم بالسعادة في عدم إحباطهم. وبصورة مثالية، كل شيء في هذا الإنجاب يحدث ضمن المراقبة والتخطيط. وبهذه الصورة يتوخى علم الطب أن يكون الحمل الآن، في فاعلية تقنية وتشخيصية دون ثغرة أو لوم على الإطلاق، وكامل القدرة لمهارة تتطلب طمأنة الأم الشابة التي غالباً ما تُترك لوحدها، لا مرجعية لها إلا الإستعانة بالكتب، وإن كانت محظوظة، فيكون لها أم أو صديقة تجيب عن أسئلتها المتعددة والغريبة.

وفي بحث مطوّل ساهمت به لمدة عدة سنوات مع (400) امرأة حامل، والذي كان يقوم على تعقب الأثر السابق لأوانه للإكتئاب فيما بعد الولادة وخلال الحمل، وكنا قد قمنا لعدة مرات، بإثبات حالة القلق للأمهات الحديثات حيال الحمل

والأمومة، وكم وجدن أنفسهن مجردات وحيدات أمام كتلة مسؤوليات توقعنها والتي من أجلها، لم يجدن في أنفسهن أي تهيئة. وقد يئسن من إيجاد يد العون، أو مجيب محنك يتمكن من طمأنتهن، وإعدادهن لشيء ما والذي، بكل وضوح، كان يهرب منهن تماماً.

ومن يذكر الأمومة، يذكر الصمت والنسيان والتراخي. وقد تكون الصدمة قاسية بالنسبة للأمهات الحديثات المجابهات لعدم تماسك الرسائل الواردة، فيما المثالية والذم قد يتناوبان، ويتواجدان معاً، أو يرتبطان بمثابرة، بمختلف أوجه الأمومة. والإجماع الحالي يقيّم دور الشخص الذي أقدم على الأمومة، مع احتقار طبيعة المهمات الموكلة له. ومن خلال تمجيد الأمومة المثالية والفروض الحديثة للتأدية الأنثوية التي، على الأجدر، تتكيف تكيفاً سيئاً، تجد الأمهات الحديثات مكانتهن بصعوبة، في وضع غير مضمون قد ينقلب ويهوي إذا تضاعف بهشاشة داخلية.

وكانت خاتمة بحثنا عن الحمل تخلص تقريباً بما يلي: «فيما لو ضخمنا شهادة الأمهات، فسنتمكن من القول أن المجتمع يطردهن إلى جماعتهن (رابطتهن) التي بنقصها للمصادر ترجعهن إلى زوجهن. وزوجهن ليس امرأة، وأمهن ليست خبيرة بما يكفي، والخبير ليس أمومياً إلى الحد الكافي. إنه معني برؤية الفائدة المتنامية والعائدة، في «كيبيك»، للقابلة القانونية،

إنه شكل من التسوية في هذه الأمور، إذا اعتقدنا أنها يمكن أن تمثل نموذجاً أصلياً حتى للأم الخبيرة»[1].

وفي دراسة أخرى عن الحمل، تلك التي منحتني درجة الدكتوراه عام (1980)[2]، درست فيها العلاقة بين النكوص خلال الحمل وبين الخنثوية، مفهوم حديث جداً آنئذ في كاليفورنيا. ولإقامة رابط مع علم النفس التحليلي، قاربت بين مفهوم الخنثوية ومفهوم التبادل الجنسي النفسي. وما لاحظته من خلال «رورستشاش» من بين جميع مواضيع البحث، أن القدرة والنوعية للنكوص خلال الحمل كانا مرتبطين ارتباطاً مباشراً بالـ «خلفية» المتساوية بتربية السمات سواء إناثاً أم ذكوراً. والـ «رورستشاش» للثلاثة أشهر الثانية من الحمل، أظهرن بوضوح أن النساء الأكثر نسبياً لتقبل حالة نكوصية بصورة نفسية، كن اللواتي يضطلعن الأكثر بالصفات التي يصفها الأمريكيون بالخنوثة، ولدراية وتحمل المسؤولية بكمية متساوية ومرتفعة سواء بسواء بين أنماط الذكور والإناث. مع أنه بصورة قاطعة من الناحية النفسية الاجتماعية، مفهوم

---

(1) V. Lussier, H. David et al. (1994), «Enjeux maternels et dépression postnatale : rupture ou continuité», in Devenir, vol. 6, 22.

(2) H. David (1980), Les manifestations psychologique de crise chez la femme enceinte primipare et son niveau d'androgynie, thèse de doctorat inédite, Université de Montréal.

الخنثوية هذا، سمح للباحثة الكاليفورنية ذات السمعة «ساندرا بيم» المجاهرة بالأنوثة، في أن برهانها أن النساء الخنثويات كنّ، في جميع النواحي، الأكثر اتزاناً من الناحية النفسية، والأكثر بلاء وإبداعاً. تناولت عندئذ هذا المفهوم وطبقته على النساء الحوامل وتحققت، سواء في بحث الدكتوراه أم في أبحاثي اللاحقة مع أوسع العينات، أن النساء الخنثويات كن أكثر إبداعاً في التكييف النفسي مع طفلهن من النساء المصنفات أنثويات جداً، أو ذكوريات وغير متميزات. ومنذ عام (1980) كنت قد قررت اختبار الخط الموازي بين الخنثوية والتبادلية الجنسية، وسألت نفسي عن أي أفكار نفسية تحليلية يمكنها أن تنضم للبعد النفسي الاجتماعي للخنثوية.

وإذا عدت إلى نفس البحث اليوم، فلأن الجنون الأمومي في الحياة اليومية انطلق بكل تأكيد مترابطاً مع التبادلية الجنسية النفسية، مع التسامح والتعايش اللاشعوري وإلى حدٍ ما الصراعي بين الإيجابية والسلبية، في أن يكون ويقوم على عناصر «أنثوية بحتة وذكورية بحتة»[1] والتي تتحرّض بشدة في جميع الوظائف الأمومية، عند بداية الحمل. وفي عددٍ من مجلة «Nouvelle revue de psychanalyse» حول التبادلات الجنسية

(1) D. Winnicott (1966), «Clivage des éléments masculins et féminins chez l'homme et chez la femme», in Bisexualité et différence des sexes, Paris, Gallimard, «Folio- Essais»,, 1973, p. 473-497

النفسية، يصف «كريستيان دافيد»[1] كيف أن التجربة العيادية غالباً ما تمدنا بفرصة التحقق، من خلال استلاب الوعي وإدماج المثلية الجنسية الكاملة، ومن خلال الأنثوية أو الذكورية غير الظاهرة والمكبوتة إلى درجة كافية على نحوٍ ما، وبفضل أيضاً تصالح الإندماجات الصراعية، كما أن رسو وظيفة المبادلة الجنسية هو محرِّر للطاقة، وعامل لا يُستهان به للتحديث في العلاقات مع الآخرين والإغناء لوظيفة الجهاز النفسي. نجاح كهذا، يتطلب إعادة تناول ما يُسمى بالطور اللاشعوري للتبادلية الجنسية في خدمة ترسيخ كامل الوظيفة التبادلية الجنسية التي تحدث عنها «فرويد» (ص 375 ـ 376).

وكان حري بنا أن نتساءل، مع «كريستيان دافيد»، فيما إذا أمهات شابات اليوم، ومن خلال الإنفتاح الواعي على نوع من إزالة الحواجز للنماذج الجنسية ووظائف الرعاية الأمومية، هن أكثر نعومة، وأفضل إعدادٍ للعيش مع الرهانات النفسية للأمومة، أو ربما يكن أكثر تجريداً وقلقاً أمام الإستحقاقات النرجسية التي منحن أنفسهن لها، وأن المجتمع والديموغرافيا يفرضان أمومة متوحدة، ومتأخرة ومرتبطة ارتباطاً شديداً بالحياة المهنية.

---

(1) C. David (1973), «Les belles différences», in Bisexualité et différence des sexes, sous la dir. De J.-B. Pontalis, Paris, Gallimard, 2000, p. 357-388.

وقد نتساءل، على سبيل المثال، حول المكانة التي تبقى من أجل «الشاغل الأمومي الأولي» لـ «وينيكوت»، عندما نعلم أن الشاغل الرئيسي هو في بعض الأحيان «إدخال الطفل في الأجندة»، سواء بالنسبة لتاريخ الوضع أو بالنسبة للعودة إلى العمل.

وعندما وصف «وينيكوت»[1] الشاغل الأمومي الأولي كـ«حالة من الإنطواء، والإنفكاك، والهروب، أو حتى اضطراب عميق، كما لو أنه مرحلة فصامية يتغلب من خلالها أحد مظاهر الشخصية بصورة مؤقتة» (ص 287)، مما يجعلنا نستنتج إلى أي حد يمكن لهذه الحالة أن تكون موضع تهديد بالنسبة للأم التي تكون التبادلية الجنسية بالنسبة لها مترنحة. ويضيف «وينيكوت» أن على المرأة أن تكون بصحة جيدة، لكي تبلغ هذه الحالة ولتخرج منها في آن واحد عندما تتخلص من الطفل. وما أدعوه الأم «المجنونة بما فيه الكفاية» يشهد ويشير لتسوية عصابية ناعمة إلى حدٍ ما لتدع نفسها تجتاحها الأهواء التخيلية العدائية دونما كثير من القلق. مثل: «سأرميه من النافذة» «سأبيعه اليوم» «سوف يجعلني مجنونة» أو كما سمعناه أخيراً: «سوف أعيده لمن أرسله» مَن مِن الأمهات لم تستطع التهرب من هذه الأفكار أثناء غيظها؟

---

(1) D. Winnicott (1956), «La préoccupation maternelle primaire», in De la pédiatrie à la psychanalyse, Paris, Payot, 1969.

أو أيضاً، كما أوردت إحدى المحللات: «لماذا أحس أنني أم سيئة، وأحياناً غير مؤهلة بتاتاً لمهمات تبدو لي بسيطة جداً، ولماذا أكون متعبة في المساء القادم، وحادة الطبع في موعد حمام الطفل، ومع قليل جداً من الشبقية، ومع انتقاد مستمر لزوجي؟»

الكمال الأمومي، إنه مراقبة مستمرة دون أي نزع للأطوار الأولية، قد يشهد على الأجدر برفض لاشعوري للقطب العدائي في التناقض الوجداني الذي لا مناص منه خلال ممارسة عملية الأمومة. وقد تتمكن الأم «المجنونة بما فيه الكفاية» أن تكون طريقة أخرى للإلحاح على «عدم الكمال»، فأهمية الاحتفاظ بالحق في أن تكون مجنونة في فترات يُقدر لها أن تكون الأكثر مؤاتات. وآمل أن «وينيكوت» ربما لن يعارض رؤية بديلة بالنسبة لغايات قصدنا من عبارته «امرأة طيبة بما فيه الكفاية بإمرأة مجنونة بما فيه الكفاية» مع أننا نوافق على أن تعبير «وينيكوت» مقبولٌ أكثر من الناحية الإجتماعية. ويحتوي مفهوم «الطيبة بما فيه الكفاية» نقيضه بوضوح في عبارة «سيئة بما فيه الكفاية». للطيبة شيء ما من التطمين، ومن الأمومية، ومن الحماية، إنما هناك إشكالية هنا، تكمن في إجلاء عن هذه التسمية، التحدر الأكثر قدماً، وأكثر واقعية، والذي تستدعيه ممارسة الأمومية، إنها الإشكالية التي أقصتها الأساطير منذ الأزل. وينتقد «جاك أندريه» تماماً إزالة الإسباغ الجنسي عن

مفهوم «وينيكوت» حول الأمومة. فحنان الفترات الأولى هو بالتأكيد ثديي، على حد قوله، وهو يغوص بجذوره في ميراث الجنس (البشري)، إنما كيف لهذا الحنان أن يتفادى الانزلاق نحو حنان آخر، حنان ذو غايات أقل «نزاهة» وكبتاً؟ ويفضل «جاك أندريه» أن يضيف الجنس اللغزي للأم إلى حكم «holding» الهم الأمومي الأولي ليشمل العالم الدافعي اللاشعوري الأمومي. وهو يُدخل هنا الـ «الثدي» كتحدر نشئ نوعي لصلة الأم بالطفل، من جانب ما يسميه الكثيرون «رباط». إنما يضيف الذي لا يُجنّس للاكتشاف النفسي التحليلي، واللاشعوري الأمومي، لإغوائه اللغزي، مما يقوم مجرّبو الرباط وملاحظته بالاقتصاد بصورة منتظمة[1].

كانت عندي في التحليل، منذ حوالي أربع سنوات، أمٌّ شابة لفتاة صغيرة عمرها الآن سنتان. ومؤخراً، وفي بداية الجلسة، راحت تشرح لي: «مساء الأمس، بالكاد تجرأت لأن أروي لك ذلك، لقد غضبت غضباً شديداً من ابنتي التي قررت إفراغ خزانة غرفتها وألقت بكل ثيابها أرضاً. وقد ضربتها على قفاها، وأنبتها، وجعلتها تخلد إلى النوم بأسرع ما يمكن. وبالطبع كانت تبكي في سريرها، لكن لم أستطع مواساتها بسبب غضبي الشديد. وفي النهاية، قصدتها ورحت أهز لها قليلاً،

(1) J. André, L'imprévu en séance, Paris, Gallimard, 2004, p. 130.

ومع ذلك، لزمها وقت أكثر من المتوقع لغرق في النوم. كيف حدث أن أكون نافذة الصبر لأجل هفوة كهذه، وها نحن في يوم الجمعة مساء، ولم أعد أراها منذ أسبوع، وكنت سعيدة جداً بأن الأسبوع شارف على نهايته لأتمكن من أن أكون معها؟»

إنها تأسف لانتباه زوجها على ابنته أكثر منها «بدأت أعتقد أنني غيورة من المراعاة والعاطفة التي تلقاها ابنتي من والدها» وإذا ما تمادت الفتاة بإغواء والدها بلطفها وسحرها، تحس الأم أن زوجها يفلت منها. وستشرح لي في جلسة مجتزأة أن الصغيرة في دار حضانة بدوام كامل منذ عدة أيام. وهي تراقب ما إذا استعادت زوجها: «لقد عاد من جديد يعد لي العشاء، ويقبلني قبل الانطلاق إلى العمل. وعاد إلى اتخاذ المبادرة في البيت. فمن بلب رعاية ابنتنا، انصرف عني. وهاأنذا أشعر أنه عاد رجلاً من جديد» كما لو أن أمر الاهتمام بالفتاة الصغيرة ثلاثة أيام في الأسبوع حيث يكون في إجازة، كانت تغرقه، بنظر زوجته، وربما الحق بجانبها، في اندماج أنثوي كما لو أنه ابتعد عن أي شكل من الوضعية الذكورية. حتى أن الحياة الجنسية اختفت إلى حد ما، لصالح شبقية متوجهة كلياً نحو الفتاة، كما لو أن الرجل «الوردي» الذي آل عليه، جمّده في دور سلبي أنثوي، تماماً على عكس الانفراج للذاتية الكاملة التبادلية الجنسية التي يصفها «كريستيان دافيد». هذا

التفكير العفوي لمريضتي حول الذاتية الذكورية التي تجدها في زوجها، تجعلنا نتبصر بالتحديات وحالات القلق التي يمكن أن تؤدي لتوقعات إزالة حواجز الأدوار وحول نتائج علاقات الزوجين.

العمل التحليلي مع هذه المريضة، كما مع كثير من الأمهات، غالباً ما يُقام على أرضية «الشعور بالذنب»، و«عدم الإشباع»، مذنبة بسبب العمل بدوام كامل، وأحياناً حتى ساعات متأخرة تمنعها من أن تكون مع ابنتها لفترة قبل النوم، ومذنبة بسبب فترات نفاذ الصبر والغضب الشديد، ومذنبة بسبب حياة زوجية تحولت كجرعة من الحزن، محرومة من واجب تخطيط كل شيء، وحمل كل شيء على عاتقها، ومحرومة من واجب العمل بالسرعة القصوى للإنتهاء في ساعات معقولة، ومحرومة في الركض طيلة الوقت، ومن عدم إيجاد وقت من أجل الترويح عن النفس، ومن أجل القيام بالتمرين. كما تشعر بالذنب لعدم كونها أماً متكاملة، كما ترى نفسها ناقصة من الكمال النرجسي، هي التي من الواجب عليها بسبب أمومتها الناجحة، أن تُجزى لما لم تكنه، ألا وهو أن تكون فتى. وبالفعل، كان على هذه المريضة منذ ولادتها أن تحل محل صبي، فعمّها أخ والدها، مات غرقاً في مراهقته. وقد حملت اسمه الذكري الذي أراده والداها عوضاً عن اسم ماري، اسم العذراء. وكان عليها أن تبادلية جنسية حتى في اسمها، ووضعها

كأم أوجب عليها الحصول على التكامل النرجسي الذي حُرِمت منه منذ ولادتها، وقد وُلدت لتكون في هوى تخيلي أبوي، كمُعوّضة لموت يُشعر بالذنب. وطفل أوديب كان فتاتاً، وهذا ما تشتكي منه في كونها المنافس على حب الزوج.

وقد وجدت مريضتي نفسها ثانية وحيدة إذاً في جميع عطلات نهاية الأسبوع مع ابنتها، «أم لنهاية الأسبوع في دوام كامل»، وكما وصفت نفسها، غالباً ما شعرت نفسها مهجورة من دورها ومن حياتها الزوجية.

ومعنا الآن موقفٌ نمطيٌ إلى حدٍ ما، لزوجين شابين حديثين، في بداية الثلاثينات، واللّذين كل منهما في بداية عمله، وعليه قبول شروط العمل المفروضة للنجاح في عمله. الزوج يعمل في عطلات نهاية الأسبوع، وأحياناً بناءً على طلبٍ لوقت إضافي خلال الأسبوع، لكي يسعى لكفاية موازنة آخر الشهر. فيما هي، محترفة أنهت دراستها الجامعية. وتأمل السير قدماً في عملها، وهي تعمل بجهد لتدرك ذلك. وقد حملت بطفلها بعد احتساب تاريخ الحصول على استمرارها في العمل، ليكون لها الحق في إجازة أمومة مدفوعة الأجر. وقد وصلت في ذلك إلى يوم قريب. ولو وضعت في يوم واحد متأخر، لكان عليها تأخير دوامها لعدة أشهر. ومظهر آخر للأطفال، المحمول بهم من خلال هوى تخيلي لأجندة صلاحية العقار.

وكان حملها يسيراً جداً، وأتاح تحليلها العودة للتحركات

النكوصية الهامة والضرورية من أجل تحقيق أمومة، على الأجدر، مريحة. ثم استأنفت التحليل بعد أربعة أشهر من ولادتها.

وبعد عدة أشهر من عودتها إلى التحليل، وضعتني أمام تجربة غير مألوفة عند رؤيتها قادمة إلى الجلسة حاملة طفلتها بين ذراعيها وهي في الشهر الثامن. وقد شرحت لي أنها لم تعثر على من ترعاها، وأنها تريد، على كل الأحوال، أن تعرفني على طفلتها ذات يوم. وقد جلبت معها كل شيء: غطاء وألعاب وحليب وحفاضات. وقد نزلنا نحن الثلاثة إلى مكتبي، فيما أجلست المريضة طفلتها إلى جانب الأريكة، وجلست هي عليها. وراحت تتحدث «كالمعتاد»، وكان علي خلال هذا الوقت أن أراقب الطفلة التي اكتشفت بلا صعوبة تذكر، كيف تزحف على سجادتي وتذهب للعب أثناء الزحف بكل ما كان يثيرها، فتتدحرج تحت طاولة القهوة، أو تطرق رأسها على زاوية الطاولة، أو تأخذ ما استطاعت الحصول عليه من على الطاولة، أو تسحب أصيص الورد المجفف، وأنا أتغاضى عن ذلك! وحصل كل ذلك خلال حديث الأم المتمددة على الأريكة بكل طمأنينة، وكنت أطمئنها بمراقبة طفلتها، مع محاولتي القيام بشيء ذهني، إنطلاقاً من هذا الموقف. أهو الجنون الأمومي أم جنون المحللة؟ كان علي أحياناً الذهاب للبحث عن الطفلة في زاوية المكتب لحكمي أن الصغيرة قد تخاطر في جرح

نفسها أو تُدخل إلى فمها أشياء خطرة. وحتى استدعى الأمر أن أمسكها بين ذراعي خلال الجلسة، وأثناء ما كانت مريضتي تستغل هذا الوقت لتحدثني عن شيء ما بوضوح.

تتيح لنا هذه الأمثلة مناقشة هذه الأم «المجنونة بما فيه الكفاية»، وهو موضوع يومنا الحالي. وربما يكون هذا الجنون حالة تهرب منا، أو تدنو منا، جرأة واندفاع في العواطف، والتأثيرات، بالسلوك أو بالكلمات التي لا تحوز أبداً، في ظروف أخرى، على سدة ما. وأعتقد أن الأم «المجنونة بما فيه الكفاية» تظهر للملأ جرأة يسمح لنا استثمارنا الشغفي للأم أن نعرضها، بواسطة تجاوز الحدود يمكن أن نسمح لأنفسنا باجتيازها، في حين أننا قد نمتنع عن نفس الجسارة في مواقف اجتماعية عادية. ففي ناحية فرض وجود الطفلة علي، ألغت مريضة التحليل مدى وحيادية كثيراً ما أنّبت زوجها عليها. وفي تصرفها، أجبرتني على حكم holding واقعي وإيجابي، بكونها أيضاً البديلة عن الأم الغائبة حين الولادة، والحاضرة بصورة ضعيفة في الحياة الواقعية. وكنت سنداً لأمومة بواسطة بعض المظاهرالمحبِطة، وشعرت نفسها بعيدة عن زوجها، وحيدة مع ابنتها، ومحبَطة بعدد من المسؤوليات التي عليها اتخاذها لتخطيط جميع مظاهر الحياة اليومية.

«لماذا أنا التي تفكر بكل شيء، ومن يعد قوائم البقالية، ووجبات الأسبوع، ومن يشتري الثياب، ويفكر بالتسجيل في

الحضانة وبمواعيد طبيب الأطفال، . . إلخ؟» وتشكل هذه الشكوى في حمل مسؤوليات إدارة العائلة سمة معممة لدى الأمهات الحديثات، إنها أيضاً سمة في الترانسفير: «هل تهتمين بي وبطفلتي عندما أكلمك»، «كوني تلك التي تحمي بيتي العائلي»، كما «وينيكوت» في الهم الأمومي الأولي. وتدل هذه الحركة على شيء ما نحاول الإحاطة به اليوم حول الجنون المدعو أمومياً. وما أسميه «الجسارة»، قد يكون أكثر تحديداً، نوعاً من الخروج عن الكبت، ولا يُنظر إليه كصادر عن تعبير عن أطوار أولية،كما قد نصف ذلك في الجنون النفسي، إنما كتوسع لآليات للدفاع في مواجهة ما يأتي غالباً ليوقظ فينا شدة متطلبات ذريتنا في مكاننا. ولماذا يصعب جداً أن نكون عقلانيين، ناضجين في تفكيرنا، وبحيازة كاملة نضبط أطوارنا الثانوية، حين نكون في صلة مع أطفالنا؟

أينبغي تكرار قول أن الأمومة تأتي لتبحث عما بداخلنا من مهجور وقديم، وعن الذي استخف سابقاً لأوانه في علاقتنا الأولى ببيئتنا. نصبح أمهات، ونستعيد الآثار الأولى لقصة حياتنا، بواسطة استثارة العناصر الأكثر كبتاً، وتقبل القابلية الانجراحية التي لا نقيس امتدادها إلا في أوان انطلاق الحمل، إلى حد ما، كالذي تحرك بمناسبة علاقة ترانسفيرية. الفارق في التحليل، أن الأم الشابة تكون وحدها ونجعلها تحس أن تكون في منتهى بهجة انفراج الأمومية وتربية الأطفال. وليس مدهشاً

أن الأمـهـات المـنـهـكـات en post- partum (بـعـد الـولادة) لا يستشرن تقريباً، وغالباً ما يقعن تحت وطأة شعور شديد بالذنب وبالعجز وبالخوف أيضاً من مواجهة ما تحرك من جديد في علاقتهن الأولى مع أمهن.

إن المأزق الخاص بالنسل الأنثوي يعبث بالفتاة حين تصبح امرأة وتواجه إمكانية أن تصير أماً، وتجد نفسها في مواجهة كل ما بذلت جهدها للتهرب منه حتى اللحظة، وبطاقة متجددة خلال مرحلة المراهقة حيث سعت قبل كل شيء على ألا تكون كأمها وعلى تأكيد استقلاليتها. وتأتي رهانات الأمومة لتذكرها بلا إيحاء بأن ليس هناك ذاتية قاطعة بين الأم والبنت، تشوش يتراكب بطريقة إشكالية الاندماج والمماثلة، أي «الكائن مثل» أو «الكائن الذات». وحينما تلتحق الفتاة بأمها، تغامر دوماً في أن تستهلكها وتبتلعها، بالعودة إلى النقطة الأصلية، في مكان الاندماج نفسه، المكان الذي أبعدها عنه كل نموها في سعيها للكمال النرجسي. كما يتعلق الأمر بالسير عكس الاتجاه الذي كان يهدف لإرساء مسافة مع الأم، مسافة حياتية، بسبب المخاطرة بالاندماج، وبالنوم القاتل، ما لم يأتِ الأب ويُضعف هذه الصلة الوثيقة جداً بالرحم الأصلي. فالانفصال، حتى الرمزي، عن التصاعد الأمومي يجعل التكيف مع الذات أكثر مشقة من المماثلة بالأم، عندما يسير بكل بساطة إلى طريق مسدود. وضمن الحدود، قد يتعلق الأمر

بـ «امتلاك» الأمومة دون «أن تكون» أماً. فعلى الأمومة أن تُوظف بالإكراه قدراً ما من المصالحة، ما يفترض إمكانية النكوص دون المخاطرة بالعودة إلى الأصول. وفي أحسن الأحوال، عندما تلد المرأة «تمس أمها، وتتوصل إليها مع تمايزها عنها»[1]. وبإمكاننا بيسر، تصور عدداً من السيناريوهات حيث التهديد واستحالة هذا الطرح ينفذان على الأجدر إلى القلق والاكتئاب. وقد أوحى «جاك أندريه» مراراً هذا الرهان عندما كتب: «بسبب القرابة من طرف الأب، وبسبب التماثل الجنسي مضافاً إلى ذلك ولادة الواحدة للأخرى، يمثل ثنائي الأم والبنت الحد الأعلى من التماثل ومن تراكمه»[2].

هل هناك شخص يعاني من التناقض الوجداني أكثر من أم المستقبل؟ الرغبة الإيجابية وحدها هي ما يمكن أن يُجاهَر به. وتكمن المأساة في أن المشاعر السلبية تشكل موضوع كبت، وتتراكم طبقات متتالية وتنتقل بصمت من الأهل إلى الأولاد.

فالجنون إذاً، هو أن تكون ذاتها مسرحاً لاستعادة رهانات نرجسية لم يتم إخراجها أبداً أمام طفلة أكثر هشاشة

---

(1) V. Lussier, H. David et al., op. cit., p. 24.

(2) J. André, Mères et filles: La menace de l'identique, Paris, PUF, 2003, p. 13.

منها، والتي ننقل لها علاقات أكثر أو أقل إشباعاً من طفولتنا. والمشكلة أن الأم، لا دراية لها مطلقاً بذلك، حتى وإن اعتقدت إنها تعرف، بل هي لا تستطيع الامتناع عن معايشة علائم الجنون اليومية، كفقدان الصبر، والشعور بالذنب، والحلم بطفل آخر، أو بجنس مغاير، أكثر جمالاً، وأكثر يسراً ولطفاً لا يشبه أمنا، أو زوجنا أو والدنا! وتقول هنا «كلير سكيرز»: «يسوق الجنون الأمومي العادي جميع الجروح النرجسية القديمة، والصدمات، وحالات الأسى وميراث تناقل الأجيال، والتي نبلغها تحت تأثير الكبت»[1].

ومن العسير والمهدّد لبعض الأمهات أن تشهد وتضطلع بالتبعية المطلقة للطفل تجاههن، بالانعكاس لما عايشنه أنفسهن مع أمهن. ويقيم الطفل، جراء هشاشته، علاقة قد نصفها بالدافعية، ضمن الإطار الذي لا تكون العلاقة فيه إلا أداة متعة، كما فسّرت ذلك «بيير أولانييه» إنما أيضاً وعلى الأخص لقضاء حاجة. ويستدعي الجنون الدافعي للطفل جنون الأم، مع حالات القلق من الاندماج ومن الابتلاع، بحيث وحدها أم ذات أنا متميز جداً من حيث التحمل، أو عدم التحمل من وقت لآخر، لفترة أن تكون مجنونة بما فيه الكفاية وعلى نوبات من الشدة تتلاعب بها دون أن تتوه في تحجر العدائية والقلق

(1) C. Squires, «Et si c'est une fille?», in Mères et filles: la menace de l'identique, op. cit., p. 121.

للذين لا يمكن تسميتهما، كما في حالة الأمهات اللواتي يقتلن طفلهن[1]، أو أمهات الحالات المحدودة[2].

إن العنف الذي يمارَس بواسطة ترجمة الأم لمجموعة مظاهر تجربة الطفل (infans) يعد شيئاً ضرورياً. وهو يرافق، إن صح القول، الجنون الأمومي في الحياة اليومية. ومن ناحية أخرى، العنف الشديد هو أيضاً علامة على الجنون الأمومي الأكثر مرضية، وهو الذي يشير إلى إساءة استخدام السلطة.

وإذا كانت النساء ماسوشيات، فإنهن يُظهرن ذلك كثيراً في حياتهن الأمومية عندما يحرمن أنفسهن بإفراط لصالح أبنائهن، بحيث يدعن أنفسهن لزيادة الأعباء، وعلى الأخص بشيء من الطغيان الذي تسببه المتطلبات العائلية المتواصلة. كما أن شعور الإحساس بالذنب اللاشعوري يذكي إنكار الذات الذي يثير، عاجلاً أم آجلاً، مظاهر الجنون الأمومي بطريقة سليمة أو مرضية.

وإذا كان خصم عذاباتنا كأم، على الأقل معروف لنا،

---

(1) H. David, «Les mères qui tuent», in La féminité autrement, sous la dir. De J. André, Paris, PUF, 1999.

(2) S. Turcotte, H. David (2003), Influence de la vulnérabilité psychotique de deux mères états-limites sur les aspects fusionnels et rejetants de la relation avec leurs enfants, in *Revue québécoise de psychologie*, 24, 2, p. 167-194.

فهو الذي يجعلنا مجنونات، ومذنبات بكوننا مجنونات، ومذنبات بكوننا أمهات. ولا توجد إلا حالات الجنون من الجانب السلبي، تطفو على السطح من جديد، وعلى سبيل المثال، تأنيب الضمير الذي يحدث بعد يوم طويل جداً في المراقبة والشجار والضبط لأولادنا. كما هناك جنون الأم الذئبة، تلك التي قد تقوم بأي شيء من أجل حماية ابنها إذا أحست بتعرضه للخطر. ويمكن للأم القلقة أن تحتد وتطالب بجرأة تندهش هي ذاتها منها، أو تغادر لتمر بـ «هستيريا»، كي تدافع عن ذريتها. هذه التصرفات الأمومية التي تتخذ قليلاً طابع الجنون تعبر عن ذاتها غالباً، بعيداً عن أي عقلانية، كدعم للحفاظ الذاتي الممتد إلى الذرية التي يتوجب المحافظة على سلامتها. هذا «الجنون الأمومي» يضمن المحافظة على الجنس. وبالطبع، هناك مكان لكثير من الذاتوية، وفي ذلك المكان نقدِر بسهولة اجتياز الصراعوية بواسطة الاسترجاع، وما كان يتملكنا يفلت الآن منا.

إذاً، علينا أن نطرح جانباً تساؤلاً جوهرياً، والذي للأسف ليس شأننا اليوم: لماذا يكون الآباء أقل «جنوناً» من الأمهات، وفي نواحٍ عدة أقل قلقاً، وأقل حمائية؟ ولماذا تأسف الأمهات كثيراً من صراخ نفاذ الصبر، هل يحسسن بقدر من الشعور بالذنب الشديد، وهل يعشن مع ذريتين بنوع من الطفح من كل الأنواع؟

هناك كثير من الروايات، تتلاق وتتقاطع وتتجابه من خلال تربية الطفل. وقبل كل شيء، هناك قصة حياتنا، ثم رواية اختيارنا الزوجي، والتي ترجع إلى قصة طفولتنا، وهناك قصة حياة زوجنا وقصة ما دفعه لاختيارنا، وهناك اللقاء بالطفل الخاص، مع رواية متفرّدة بالحمل واللقاء بالعالم. إن قدرة «أحلام اليقظة الأمومية» عالية المحدودية، وتسكن في سيناريوهات معقدة لتشعبات متعددة، ومسجلة في قصة حياتنا الجنسية الطفولية، بحيث من المستحسن، أن تقيم في جزء كبير منها بصورة لاشعورية وهذا لخير الجميع، وعلى الأخص طفلنا.

ولقد كان «ب. أولانييه»[1] واضحاً جداً في هذا الموضوع، حيث أورد أن على الأم أن تكبت تماماً مركباتها الأوديبية لتكون جديرة في تقديم بيئة غير ذهانية للطفل. وعليها أن تكون مثقفة ثقافة جماعية، كما عليها أن تفرض على الطفل تشدداً أولياً أساسياً، للخروج من النرجسية الأولية بخروج متوازن.

ويتحدث «بيون» عن (détoxification إزالة أذى) حالات القلق عند الطفل، وعن قدرة أحلام اليقظة الأمومية، فيما

(1) P. Castoriadis-Aulagnier, La violence de l'interprétation: du pictogramme à l'énoncé, Paris, PUF, 1975.

يتحدث «وينيكوت» عن الهم الأمومي الأولي، و«أولانييه» عن العنف الأولي، كل ذلك لمحاولة التحويل إلى كلمات لما يحدث في نفسية لا زالت غير مسجلة في لغة الطفل، وعلى العكس، في نفسية تغذت تغذية غزيرة بالمحتويات اللاشعورية من جانب الأم.

مجنونة إذاً فيما أوجب عليها كبته من أحاسيسنا الجنسية الطفولية الخاصة، ومن صعوبة المحادثة عن تبادليتنا الجنسية النفسية، ومن الكون والعمل كما أوضح «وينيكوت» ومن التوازن المزعزع في بعض الأحيان لنرجسيتنا التي أسيء لوضعها خلال طفولتنا.

وليس مستغرباً أن تبرز مظاهر الأطوار «الأمومية» الأولية في مسار علاقة الأم بالطفل. كثير من الرهانات الشعورية، وعلى الخص اللاشعورية، المحددة في كل علاقة، تصحو كل يوم، وفي كل مرحلة من مراحل النمو، ومع كل طفل على حدة.

مريضتي فقدت صبرها مع ابنتها وعمرها (22) شهراً، ولا تعرف أنها تؤنب إبنتها الصغيرة على حريتها المنفلتة من أي قيود، علماً أن هي نفسها حُرِمت من هذه الحرية، حينما كانت فتاة صغيرة نموذجية، وأمها تعيش في ضيق وفاقة، وحيدة لا معين لها، مع أب مغيّب عاجز عن تأمين الاحتياجات العائلية. وكانت مريضتي لوحدها في ذلك المساء، وحيدة

بلا زوجها الذي تغرّب من أجل العمل، ومثل والدها الذي سافر قبل عدة سنوات، عندما كان عمرها خمس سنوات، وقد تُرِكت وحيدة مع أم واهنة تراكمت عليها الأعمال. ولو كانت مريضتي قد أدركت كل ذلك لحظة نفاذ صبرها، لربما نجحت في تهدئة خاطرها، ولأصبحت ثانية طبيعية ويسيرة مع ابنتها. لكن في السيناريو اللاشعوري الخاص بها، استعادت أباً غائباً، وأماً متعبة مغمورة بالعمل، ووحيدة مع ابنتها التي أحبطتها، والتي لم تكن متكاملة كما كانت هي، وزوج أحبطها، ومهنة متشددة قاسية، ومسؤوليات عائلية كانت قد استهانت بمداها. وليس من المستغرب أن الجنون الأولي الأمومي يدركها من وقت لآخر، كما يدركنا جميعاً بين فترة وأخرى. على الأقل حظيت مريضتي بالعلاج التحليلي، وبقبولها العمل على إدراك (les intrications حبائل) وتشابكات قصتها. فما بال الأمهات اللواتي ليس لهن هذا العون، وفي صراعات مع ظروف ممارسة أمومتهن، أكثر زعزعة من ظروف مريضتي، وبحدود نفسية وتربوية ومالية وعائلية ذات أثر كبير؟

وفي هذه الحالات، من المؤسف ألا يغلب وجود الجنون الأمومي في الحياة اليوم على بساط البحث، إنما حسناً، كما قال «ب. أولانييه»، الجنون ليس أساسياً لفصل الأم عن ابنها وتأمين حمايتها له، إنما القصد الجنون الذي يتجاوز الضرورة، والذي يترجم تراكب الطفولة الصادمة وغير المنحولة إلى علاقة

واقعية صادمة أيضاً. إنما لهذا الجنون، ليس إلا تساؤلاً في علم التحليل النفسي. هل نحافظ على المتعة والضرورة اليوم في الحديث عن الجنون الخفيف للحياة اليومية، وعن الأم التي لها الحق، وتقريباً الواجب، في أن تكون مجنونة بما فيه الكفاية في أوقاتها، هذا الجنون الساكن فينا جميعاً.

شكوى الأمهات المعممة في كل مكان في وجوب تحمل مسؤوليات جميع المهام التربوية والمنزلية، أليست طرقة من طرق دفع ثمن الخداع، لقاء مكانة سلبنها من الرجال؟ وإن أرادت بيولوجيتنا أن ننشيء ونرضع وننسج مع أطفالنا طابع العلاقة الأولى، في فترة حاسمة جداً للنرجسية الأولية، كيف نتقبل إمكانية معايشة كل ذلك، وأكثر بأكثر بعد أن فُتحت لنا أبواب جميع المهن؟ والجنون الأمومي في الحياة اليومية، كترجمة معاصرة، ألا يكون أيضاً الضريبة التي ندفعها لقاء جرأتنا على الدجل في عدة وضعيات متزامنة؟ وبالإفراط في تقربنا من عالم الرجال مع إرادة الإستمتاع بعظمة الإمتياز الأمومي، ألا نعتقد أننا بلغنا أخيراً موجزاً عن التبادلية الجنسية المتكاملة حيث نكون ونعمل، أنوثة وذكورة، إيجابية وسلبية تعيشان معاً في تعايش منسجم؟ الشيء الأمثل، ربما هو في الثبات، إنما هناك هدف مساره مزروع بالشعور بالذنب وبالحرمان الذي علائمه الأساسية تتواجد في ممارسة الأمومة وجنونها اليومي.

«أنا عديمة القيمة بالتأكيد» جملة في التحقير الذاتي، من

جانب الفتاة، في مواجهة عقدة الإخصاء. ما هي الخديعة إزاء عقدة الإخصاء؟ وعندما يطرح الوضع الأنثوي الاجتماعي نفسه باقتحام أكثر فأكثر، ما مآل فقدان الحب من ناحية أداة الأم الذي غالباً ما تتجاوزه الفتاة بسهولة، أو أب تطرح نفسها أمامه بالمنافسة في معظم الأحيان مع امرأة سلبية ومغرية؟

وماذا يجب اليوم لنكون أماً، أكثر جنسية من الأم عند «وينيكوت»، وأكثر هجراً من الأم عند «فرويد»، وأقل انتصابية من الأم عند «ميلاني كلين»، أماً قد تكون حقيقية، وتبادلية جنسية وأمومية؟ وكيف نقيم في الـ good- enough الاقتلاع أو الخلع الأمومي، الغاوية بصورة لغزية، وليس بإفراط، بل أقل من الخطوة الكافية؟ وكيف نكون «مجنونة بما فيه الكفاية» في مجتمع الاقتصاد والمعرفة والتواصلية؟ وكيف نستمر في الحياة اليومية لحياتنا كأمهات أكثر فأكثر مجنونات؟ إنه التساؤل الذي يشغلنا اليوم، والذي «يهم» جميع أمهات اليوم.

V

الجنون الأمومي كوظيفة ضمن العائلة

كارولين تومبسون

من أجل تناول مسألة الجنون الأمومي، سأنطلق من عيادتي المختصة بالمعالجة العائلية. فلقد أتت عائلة (د.) للاستشارة بسبب عنف ابنهم «جان»، أربع سنوات، عنف يعبر عن نفسه بصورة رئيسية تجاه أخيه «روبنسون» عمره سنتان. أما الأب فهو رجل متقاعد، وقد سمح له الصمم الجزئي في أن يبقى في المنزل يواجه الضجيج والهياج من بقية العائلة. والمدام (د.) امرأة قصيرة جداً، نحيلة ورشيقة إنما ديناميكية جداً. وتملك وظيفة ذات مسؤوليات في شركة كبيرة. «جان وروبنسون» يبدوان كطفلين خصمين يلعبان معاً ويتشاجرن أحياناً، وهذا كله اعتيادي.

أما ما يلفت النظر منذ المحادثة الأولى، هي القوة التي

تُعزى لـ «جان» كمثير للقلاقل ضمن هذه العائلة، والعنصر التدميري في منزل هادئ. عبارة «مثير» أُخذت في آخر الرسالة، إذ يصبح حاملاً للخطيئة. وأخبرتنا الأم أنهم قد استشاروا عدة أخصائيي علم النفس والذين في كل مرة يقولون لهم أن «جان» كان عادياً وأن الغيرة التي يعبر عنها إزاء أخيه لا تنذر بشيء. لكنها تعلم ـ بذلك العلم الذي لا يمتلكه إلا الأمهات ـ أن تلك الأقوال لا تعني شيئاً وأن هذا الطفل من حيث صلاحيته يشكل خطراً على الصغير. وقد قدمت لترانا ـ حيث كنّا معالجين في استقبالها ـ لأننا وافقناها على مخاوفها واعترفنا بالحالة المرضية لابنها بغية تغييره. ويبدو لنا إذاً من غير المفيد طمأنتها إضافة لمشاركتها في انطباعاتها الأولى حول المختصين الذين سبق واستشارتهم.

أما الأب فقد ترك زوجته تتكلم. وقد لفت نظرنا الحديث المنطقي لهذه الأم، لكن هذا التحديد للمشكلة يبدو لا مخرج له مرضياً طالما أن من استشارتهم قد تصوروا أن ذلك لا يخفف شيئاً من معاناة هذه العائلة. وبغية الإجابة على الطلب الواضح لهذه الأم، اقترحنا عليها تمرير محصّلة نفسية على جان بانتظار رؤيتهم ثانية. مما أتاح تحالفنا مع الأم لتقييم ما هو عقبة عن هذا الطفل. ونحن ننطلق دوماً عن اختيار الزبون المريض، لنفهم بصورة أفضل الوظيفة التي تلعب دورها، أنه جان صاحب المشكلة والذي يبرر الاستشارة.

فقررنا معها إذاً أن نسبر ما تشتكي منه، فشرحت لنا، وعيناها تفيض بالدموع، إلى أي درجة عطلات نهاية الأسبوع رهيبة، لأنها لا تستطيع مغادرة الغرفة التي يتواجد فيها ولداها بقدر ما تخاف من أن يلحق الكبير الأذى بالصغير. وبالسؤال عن ذلك، بدا واقعياً أنه وهم تخيّلي بالخطر بل بالموت يجتاحها. قتل الأخ.

وقد أدهشنا عنف تفكيرها. وفي هذا الوهم التخيلي الذي يخص الأم، المغاير كلياً للواقع الذي بدا لنا في هذه الأسرة، يكمن الموضوع الذي يهمنا. يمكننا التوقف على هذا الإسقاط، لكننا اخترنا أن نسأل أنفسنا عن وظيفة هذا الجنون الأمومي في المنظومة العائلية. ما هو الدور الذي يلعبه هذا الوهم التخيلي، ولماذا ظهر، وكيف مضى حتى نهايته؟ لأننا نعلم أيضاً أن طفلاً رُشق بهذا النوع من الإسقاطات سينتهي بالإجابة على هذا التحديد وسيُعطي سبباً للمخاوف السيئة عند أمّه.

وفي الجلسة التالية (جلسة كل شهر)، انحصرت المحادثة حول الفترة التي لا يعمل الزوج فيها شيئاً لمساعدة زوجته في حين أنها تُلقي باللائمة على «جان». وغدا من الواضح أن المشكلة تخص الزوجين أيضاً. وتتصف وضعية الأب باعتكاف واضح، وقد يرغب هو في تدخل أكبر في تربية الأولاد، وتؤكد ذلك طلبات وتظلّمات الأم. وتشعر هذه المرأة أنها وحيدة تجاه ما تتصوره كصعوبة لا يمكن تخطيها منذ ولادة ابنها الثاني.

وهي تصرّ على أن «جان» كائن خطر، أقوال تتباين مع الفتى الصغير الذي يبدو لنا في وضعية جيدة. وعلى الرغم من إصرار الأم في وضع ابنها في المقدمة، سألنا الأب حول هذا التحفّظ الذي يبديه: كيف اتخذ عادة التمسّك فيما يدعوه دوره العاجي؟

لقد روى لنا الجو السائد في البيت عندما كان صغيراً وحيداً مع أهله. كطفل وحيد يصعب عليه تفهم الروابط الأخوية. في حين قال لنا أن لديه أخاً لا يعرفه بتاتاً. وبناء على طلبنا، روى لنا، في البداية مع شيء من التحفّظ، إنما بلا مقاومة، قصّته. كانت أمّه يهودية فيما والده كان كاثوليكياً متعصّباً. وعندهما ابن اسمه «دافيد» والذي «اصطحبته» أمه وهو في اليوم الثامن. والسرد كان مجرّداً، لكننا أدركنا أن الأمر متعلّق بصورة إحتمالية بالخطف المباغت من «فيل ديف». وقد توفي الصغير بسرعة واعتُقلت الأم. وعند العودة بعد الحرب عثرت على زوجها وبعد سنتين أنجبا ولداً آخر سمّياهُ «كلود» وهو المعني. لكن الأم، راحت تناديه على الفور «دافيد» وهو الاسم الذي لازال يحمله إلى الآن. وهكذا حمل والد «جان» اسم أخيه المتوفي، وهو اسم ليس اسمه على صعيد الواقع الفعلي.

هذه القصة، وهذا الرجل لم يكتشف ذلك إلا شيئاً فشيئاً. إذ لم يتم الحديث أمامه مطلقاً عن ذلك. لكن الأم

كانت تعتكف لفترات طويلة، تائهة في الشقة، لا تتحدث فيها مع أي إنسان. وكان الأب والابن يحترمان هذا الصمت ولا يتفوهان ببنت شفة. فترة معاودة يمكن أن تدوم بضعة أيام، أو أسبوع. وتعوّد الفتى الصغير على العيش في هذا الصمت، حتى في المدرسة، لم يكن يبحث عن أصدقاء، ولا يستغرب غياب الاحتكاك بالآخرين هذا، كما لم يصف أي معاناة خاصة، ولا يفهم حقاً لماذا نتحدث عن تلك الحقبة البائدة، لأن ابنه «جان» لا يعرف جديه، وهو نفسه لم يصبح أباً إلا في الخمسين من عمره. ولم تبدُ له صلة بين قصته وبين عنف ابنه. (ومن ناحية أخرى، يمكننا أن نتساءل فيما إذا انتظر موت والديه ليصبح أباً، كما لو أن ذلك قد يحطّم انتقالاً ثقيلاً جداً) أن يتمكن هذا الرجل من العيش في مواجهة مراحل كانت أمه فيها، إن صحّ القول، «مغيّبة»، دون أن يتمكن والده من ذكر شيء عن هذا، ودونما يستطيع الدفاع عنه لمواجهة هذا الجنون الأمومي، جنون نجده الآن من جديد على جيلين؟ وماذا يدرك من اسمه الذي لم يكن اسمه؟

لعلنا في دهشة كبيرة من صدى جنون «أم جان»، المقتنعة بعنف ابنها، وإلى جنون الجدة، المنطوية في حداد وانزواء مستحيل يحمله ابنها، الإبن البديل الذي اختير لتعويض غياب الأول. ووالد «جان» كان طفلاً وحيداً وعنده أخ، فكيف يغار من طفل لاق حتفه، وكيف يريد قتله طالما أن ذلك سبق

وحصل؟ من الصعب كراهية أخ لا يعرفه أبداً والذي اختفاؤه يعني انقطاع تيار تمني الموت بتحققه قبل أن يحصل. وما لم يُقل، ربما يوضح أيضاً التشكيل ذاته للزوجين كما سوف نرى ذلك.

ومن اللافت أنه عند قدوم الولد الثاني بدأت المشاكل. فأن يصبحا اثنين هذا مستحيل، وأحدهما عليه لزاماً أن يموت، هكذا يمكن أن نوجز وهم هذين الزوجين الأبوين. إذ أن العلاقة الاندماجية التي شيّدتها الأم هي أحد صورها.

وفي الجلسة الثالثة، أصبح واضحاً أن «جان» على رأس من يلعب دور الأب. إنه موجِّه لأخيه، إنما بطريقة أبوية، ويسعى أن يلقنه أموراً عديدة، ويريه كيفيه تشكيل الحروف ويساعده على الرسم. ولماذا كان على رأس من لعب هذا الدور؟ الوالد يجلس ويخبرنا أنه مريض، ويحذرنا أنه أوشك على النوم خلال الجلسة، عبارة تعرب عن رغبته في استعادة وضعه الاعتكافي. ورغم هذا التحذير، وجدناه، على العكس، حاضراً أكثر، ممسكاً بزمام الكلمة وشارحاً عطلات نهاية الأسبوع الصعبة. وقد أصبح أكثر تسلطاً، وشعر أحياناً بعنفه إزاء ابنه. وحين أرسله إلى غرفته، على أثر حماقة ارتكبها أو من أجل تهدئته، أُجبِر أن يتكيف جسدياً، حتى أن «جان» تمرد. ويبدو أن الحد بين التسلط والعنف صعب الإجراء بالنسبة له. وجعلناه يلاحظ أن «جان» يريد أن يريه كيف يكون الأب، موحياً له بالإيماء الهيئة الأبوية التي يبحث عنها(ومن ناحية

أخرى، يتحدث الأهل عنه وكأنه راشدٌ ويقولون أنهم لا يشعرون بأنهم يتوجهون بالحديث إلى طفل). هذا العامل، نجح هنا حيث أخفقت الأم، لقد أرغم والده أن يتخذ مكانته. وأجبره أن يحس ويعبر عن مشاعر لم يعترف بها أبداً قبلاً. وقد وصف الأب نفسه كـ«عذب». فيما ألزمه «جان» أن يقر ببعض العدوانية، تلك العدوانية التي ترتقي بطفولته إلى النزاع الذي فرضه على نفسه في مواجهة الجنون الأمومي، جنون أمه التي انسحبت من الحياة العائلية المليئة بالمجابهة إلى ألم لا يُطاق، ثم عادت بينهم.

هذه الصيغة للكائن في المراوحة، تبناها الأب ليتفادى الاعتراف ببعض التأثيرات والأهواء التخيلية. إلا أن «جان» أحيا عند أبيه مشاعر لا يمكن التغاضي عنها، إنها العنف والعدوانية.

خلال هذه الجلسة، بدا «جان» حكيماً جداً مع أخيه. ثم بدآ كلاهما اللعب بعلبة وبحيوانات صغيرة. أحدهما يأخذ غطاء العلبة ويرسلها كترس فيما الآخر يرمي له حيواناً عليه أن يصده بالترس. وبصورة لا يمكن تفاديها، تصبح الحيوانات أكثر فأكثر كبراً، الدجاجة تسلم المكان للخنزير ثم للفيل، وانتهى «جان» بإلحاق الأذى بأخيه، فأنب نفسه. واستأنفنا هذه اللعبة ككناية عن العدوانية والوقاية من التهييج. ولا تصلح هذه اللعبة إلا لاثنين، وبالموافقة على مشاركين اثنين. ويدل الترس

أو الدرع على أمرين في آن واحد، الأول الحد، والثاني الحماية، إنما أيضاً الاحتكاك بأداة المعتدي، وبمعرفة الحيوان. وحينما عاقب الأب «جان»، رأى نفسه كمدمر وليس كمدافع، وعند ذاك يمكن للعنف أن يصبح واقعياً، لأن هذا الشعور يصبح عندئذ عسيراً جداً على الإحتمال بالنسبة له بحيث آل به الأمر لأن حقد على أخيه لأنه وضعه في هذه الوضعية. ولم يحصل أن نرى حيوية حياتية في العدوانية، تلك التي جاء «وينيكوت» على ذكرها بالرفس الذي يقوم به الطفل. ولا يمكن للعدوانية بالنسبة لهذا الأب إلا أن تكون مدمِّرة. هذا العامل، لا يستطيع أن يلعب مع ابنه كالذي يلعب مع أخيه. وأن يكون المرء ازدواجياً، أن يستطيع إخراج هذه العدوانية، ويلعب في إحداث الأذى دون أن يقوم به. والجنون الأمومي للجدة لم يسمح بهذه الحركية لأن إيحاء الأخ كان مستحيلاً. ويظهر «جان» لأهله أن هناك تناوب في الإندماج وأن الأمر لا يتعلق بالتدمير بصورة إكراهية.

ويمكننا طرح افتراض ظهورٍ ثانٍ لهذه العدوانية التدميرية في إسقاطات أم «جان»، التي لا تقوم بالتعبير عن التأثيرات التي لا تخصها. هذه الصيغة الإسقاطية لها تأثير عكسي، لا ترى الأم «جان» أبداً، مهما فعل، مما يثير هياجه بصورة فعلية. وكان اندماج الأم مع الطفل طريقة للدفاع عن النفس ضد تفجر الكراهية التي قد تنبثق إن كان الإنفصال فعلياً. ومن غير

المحتمل تصور أن الآخر موجود خارج عنك. وجعله يحيا كأداة متمايزة، إنه الإسراع في خطر تدميره، طالما أصبح حينئذ أداة الإسقاطات. ويأتي إسقاط أم «جان» جزئياً من الكراهية التي تحسها تجاه هذا الطفل الذي يجابهها في هذا الانفصال المستحيل وفي فشلها.

وستشير المحصلة الإسقاطية، من ناحية أخرى، هشاشة نرجسية عند هذا الطفل، وهو ما ندركه بيسر. و«جان» هو حامل لعدوانية يستحيل على هذه العائلة التعرف عليها أو أن تشهدها، ويصبح بها أداة سيئة منبوذة. وتكمن استراتيجيتنا العلاجية إذاً في سبر واكتشاف لمن يُعزى هذا العنف الذي يعبر «جان» عنه، وكيف يحول ما يتصوره الأهل كتهديد بعنصر من الحياة إلى صورة للعب بين طفلين.

وبالنسبة لوالد «جان»، هو أيضاً يستولي عليه جنون أمومي، إنه يستجيب للإيعاز الأمومي في محو شخصيته، وفي تمثل الغياب. والعدوانية بكونها تعريفاً خطيراً، يستحيل أن تحبا في الوضعية الأبوية. فيما يصبح التماهي الأمومي الخيار الوحيد. إنما اثنتان من الأمهات في عائلة واحدة لأمر زائد عن الحد!

ضمن هذه العائلة، عاشت الأمومة كنقيض للعدوانية. ومع ذلك يمكننا أن نتساءل، أيّة عدوانية تجاه الإبن الثاني كانت تخفي هذه الأم (الجدة من ناحية الأب) حينما تنسحب

في بيتها العائلي، وأي شعور بالذنب يمكنها أن تحس به تجاه موت الولد الأول في الفترة التي كانت تتعرض فيها حياتها الخاصة للخطر، وهي التي استمرت في معايشة هذا التهديد.

لجنون الأم، وجنون «جان» وظيفة في هذه العائلة، إنه يُحمل ويُعبّر في المكانة، وفي مكانة الأب، هياجاً قاتلاً في مواجهة صورة الأخ. وبإسقاط هذه العدوانية على الأخ البكر، تبرئ الأم ساحة الأب من تمنياته القاتلة. وتكون إذاً فرضيتي أن هذا الجنون الأمومي يخصّ الأب والأم في آن واحد. ولماذا إذاً، الأم تعبر عنه؟ هناك بالتأكيد منظومة نفسية لديها تمكنها من إدراك ذلك، إنما هذا العلاج لا يهمنا كثيراً في النهاية. وإذا تم توزيع بطاقات الجنون من جديد باتجاه آخر، فإن هذه الأم لم تعبر عنه مطلقاً بنفس الطريقة.

وينقل الجنون الأمومي على نحو ما من عائلة لأخرى ومن جيل إلى جيل، في اعتقادٍ للأم بأن ابنها في خطر، وفي الوضعية الأمومية للأب الذي لا يستطيع أخذ عدوانيته الخاصة على عاتقه.

وعند أم «جان»، يظهر التخيّل الوهمي في قتل الأخ المسقط على ابنها كترجمة للتخيل الوهمي للجدة. وقد قام العمل العائلي بترك الأب يعبّر عن تسلط مساوٍ بالنسبة له للعنف، ليتمكن من شغل مكانه كأب في هذه العائلة وتحرير الأم من

هذه الرؤية التدميرية. وسمح ذلك لـ «جان» لأن يكون فتىً صغيراً يمكن أن يقابل غيرته كتعبير عن صراع وليس كفعل مدمِّر.

وتقابلنا في أحيانٍ كثيرة بأمهات مجنونات، جنون يعرب عن نفسه في علائم الطفل. والفكرة التي نعمل بها ليست عدوى أو إسقاط إنما حدود محددة تحديداً سيئاً بين أحاسيس البعض والبعض الآخر.

وهكذا، سأميّز جنون الأم عن الجنون الأمومي الذي لا ينشأ إلا في الزوجين الأبويين، إنه جنون يحمله الزوجان الأبوان تحديداً لأن الأب لا يستطيع مساعدة الأم في الخروج من إسقاطها، عندما يكون هو نفسه مستلباً بسبب قصته العائلية (وإذا تعلق الأمر بالأب، فهو يخاطر في تدمير ابنه إذا حاول الانفصال عنه، ووضعه موضع خطر من حيث الصلاحية). ندرك إذاً وظيفة الجنون الأمومي.

وانطلاقاً من هذا التعريف، ما نراه أكثر فأكثر في العمل العائلي، هو الهيمنة المسبقة للجنون الأمومي كعنصر مشترك بين الأبوين. ولتأهيل الزوجين مظهراً علاجياً، إنه يسمح لكل منهما في الانفصال عن ارتباطاته الأصلية، والتخلص على نحوٍ ما من الصلة العمودية لصالح الصلة الأفقية. ومن ناحية أخرى، قدوم الطفل يلزم الأب أو الأم في أن يجدد الروابط مع هذه العمودية مدرجاً الأهل في سلسلة نسب، وموقظاً للروابط

الأصلية. وبصورة تقليدية، على الأب إذاً أن يحطّم هذا الدمج الأصلي، هذا الجنون الأمومي الذي وصفه «وينيكوت» بصورة جيدة جداً. وأحياناً، هذه الوظيفة الانفصالية لا يلعبها الأب مطلقاً، مثل الحالة التي نحن في صددها، فهو كان أيضاً في صلة اندماجية مع الطفل، المنعكس به من أمّه. ليس فقط الأب لا يستطيع مطلقاً لعب دور الانفصال، بل يحمل أيضاً الجنون الأمومي.

وتستمر المثلثية في اللعب إنما بصورة مختلفة، فصراع الزوجين يتضخم بالعلاقة بالطفل. ولا يلعب الأب أو الأم مطلقاً دور الفاصل إنما المنافس في التقرّب مع الطفل. وكل منهما يعزل الآخر عن الطفل، إنما يمكن أحياناً لهذا الطور أن يؤدي لصراع بينهما، ويضاعف العنف الزوجي عشر مرّات. ولعل تغيير قانون عام 1970 الذي يستبدل سلطة الأب بسلطة القرين ذو معنى بخلط ما للأدوار في هذا المنحى، لأن سلطة القرين تضع الأبوين في تناظر وليس في تكميلية.

وفي حالة عائلة (د.)، لا الواحد ولا الآخر له أب داخلي قوي بما يكفي ومبني ليتمكن من الانفصال عن طفلهما. فعنف الجنون الأمومي الذي يعبَّر عنه في الإسقاط، والانخراط والافتراسية تأتي من هذا الفصل المستحيل. وفي طور قياسي جداً، وحين يصبح عنف الزوجين لا يطاق يرجع على

الطفل، وفي الحالة الراهنة تعيين هذا كعنصر مدمِّر للعائلة. ويحمي هذا التعيين أو الاختيار، الزوجيين، ويلحمه ثانية، حتى الصراع القادم حول الطفل، إنه مخطط دوري قد يتكرر إلى ما لا نهاية. ويكمن عملنا إذاً، في إعادة توزيع الأدوار والمؤثرات للسماح للعائلة في أن تروي قصة أخرى.

VI

هل الجنون الأمومي مفارقة؟

دومينيك غيومار

أي علاقة تواصل الأمومية بالجنون؟
وإلى أي وضعية تباينية تدعى المرأة لكي تكون أماً؟

انطلاقاً من عيادة التحليل النفسي، عيادة الترانسفير دوماً، ومن اختبار سير العلاج، تعلّمت أن أسمح لنفسي بطرح هذا السؤال: ما المخاطر التي تجابه امرأة في مغامرة الأمومة وبدخولها في ميدانها؟ وعلى أيّة تمييزية يشتمل هذا الميدان الذي قد يجعل المرأة تقابل الجنون عندما تصير أماً؟

في قلب هذه الأسئلة يرتكز التمييز بين الجنون المتلازم مع الأمومة والأمراض الأمومية، عن حالات جنون الأمهات. وبطريقة أخرى، الإفتراس والوحشية والجنون اللطيف

أو العنيف قد يكون لها قدرٌ من الحركات تُؤخذ بها النساء أحياناً. هذه الصور من الجنون الأمومي قد تُظهر تحركاً دافعياً في قلب الأمومية ومؤسساً لنوعيتها، وقد لا تساعد الأقدار على ذلك كلّه.

إن كان في الميدان المؤسَّسي ذي الصلة المسبقة أو في حميمة الأريكة، استغرق اهتمامي أكثر من ثلاثين عاماً بهذه المسائل، ومصاعبها في سير القصص التي أُصغي إليها، كيف تتكون الأم؟ وكيف تدخل في هذه الصلة التي توصف بالأمومية؟ وما هو الشيء الواقعي باللقاء مع الطفل وواقعه الخيالي الذي يسبقه ويرافقه؟ لتوضيح هذه الأسئلة أجد لزاماً أن أحدد عمّا سمعته عن «الأمومية».

الأمومية. هذا الميدان الخاص حيث لا تمضي فيه الأم لوحدها. الأمومية ليست أماً وطفلاً، إنها قصة حياة كاملة! رغبات شعورية ولاشعورية، وتماهيات. إنها سلسة نسب تستدعيها الذكريات والجروح والأفراح والأمل بالمستقبل. ويُمكن للأمومة أن تشمل الأب بصيغةٍ وصفها «دولتو» بالـ mamaïsé المؤوَّم (نسبة للأمومة)، دون أن يتداخل ذلك مع وصفه بالرفيق أو العشيق أو زوج الأم.

ولا يتعلق في هذا السجل، الذي هو «صلة»، بالأم أو الأب كأدوات لعلاقة الأهل بالأولاد. إن مسألة تأسس الأداة ليست مسألة نمطية الصلة التي هي، في هذه الفترة

النفسية، الأمومة. وبالفعل توجّه الأم هذا الميدان إنما لا تكون فيه بصفتها أداة. هذه الفترة، فترة السجل الأمومي الخاص، لا تمنع السجلات الأخرى للعلاقات من التواجد، إنما يجب أن يحدث ذلك لمؤالفة الأم والطفل في لقاء.

وبطريقة فورية، يُروى لنا هذا اللقاء بما يسمّى أحياناً «baby-blues» أي مرحلة اكتئابية، هذه الفترة ليست على اختلاط باكتئاب ما بعد الولادة .post- partum الـ «baby-blues» هو ضرورة، فيما اكتئاب post- partum قد يكون بالأحرى تفويت هذه الضرورة النفسية. إنه ليس حدثاً علاجياً، إنه فترة معايشة أم لا بصورة واعية، ضرورية لعدم التكيّف لرغبة الأم لذلك الطفل. وبإمكاننا التفكير بصورة متباينة بالـ «baby-blues» كفترة خارجة عن الكومونة الإنسانية، وهي فترة من التوحّد الجذري الراديكالي بالنسبة للمرأة. التأثير الصادم للولادة «الفارغة» وليس فقط بطن وجسد المرأة، المدى النفسي الوهمي التخيلي، الذي يغمرها ويُشبعها، لفترة مختصرة، وبصورة صادمة، بواقعية، هي واقعية جسدين، جسد امرأة ولّادة وجسد كائن صغير. ومهما يحصل خير أم شر، تعد الولادة دوماً انقطاعاً زمنياً نفسياً من خيال الرغبات المرافقة للمرأة خلال حملها، انقطاعاً في استمرارية تماهيات لاشعورية، محمّلة بتصورات تسمح للمرأة في نسج صلة خيالية لتكون أماً وتتمكن من تقبّل نفسها كأم.

هذا النسيج، هذا الخيال، الذي ليس هو صلة الأم بالطفل، إنما يدنو منها، يتمزّق بواسطة اقتحام الواقع الذي هو الولادة. والولادة معروفة إنما غير قابلة للتصور بالنسبة للمرأة في معايشة جسدها خلال فترة حملها. وفترة الولادة بحد ذاتها تأتي لتُحدث انتزاعاً في خيال التماهيات من امرأة إلى أمها وإلى الأشكال الأخرى الأمومية، كذكريات الأجيال السابقة التي تساهم في تكوين الوظيفة الأمومية. وتنجم هذه الوظيفة عن الصلة بين هذه الذكريات القابلة للحراك وقدرتها على الانتقال. واقع الاقتحام أو الهجمة التي هي الولادة، والتي هي انتقال من عالم إلى آخر من أجل الكائن الصغير، هو بالنسبة للمرأة قطعٌ لفترة الحمل، وهو انقطاع نفسي عن تواصلية كونها «حامل». هذا «الواقع» يتوارى بسرعة كبيرة، بفعل فترة الاستقبال، والتعرّف وتسمية الطفل والرغبة والانتظار الذي يتحقق بإيجاد تشابه على سبيل المثال. إنما ما يمكن أن يحصل أيضاً أن تبقى المرأة مستلبة بتلك الفترة الخارجة عن الزمن، مع المجهول غير القابل للإصلاح وغير القابل للتصور، إنه نوع من الترنّح يغيب عنه الطفل والأم. وبدلاً من صدور قدرة موارية تُحدث القطع، يتوق هذا الترنّح، بصمت في الخيال، لأيّةِ صلة ممكنة مع الأمومة النرجسية المتصوَّرة. ويتعلّق الأمر تماماً بـ «الواقع» بمعنى أن يقاوم ذلك عمل التصور اللاشعوري، مصدر النتاجات الموارية.

هذه الفترة «المعزولة» عمّا يربط المرأة بقصة، تفصلها عما قبل، ولا تسمح باللقاء بينها وبين طفلها. فيما يخلق هذا اللقاء صلة نرجسية بين الأم والطفل، ولصلاحيتها بإشباع الواحد للآخر.

ويمكن لهذه الصعوبة، التي يمكن أن تدنو من الوعي، وألا تكون إلا علامة عن القطع بين فترتين نفسيتين، أن تكون صادمة للذاكرة اللاشعورية للمرأة، وهذه المرأة هي التي جعلتها حاضرة، من خلال اللقاء، في إمكانية أن تكون أماً.

لهذه الدرجة من واقع فترة تختلف عن فترة التنظيم الرمزي حيث يوجد تعديل الموضوع، يمكن للمرأة أن تجد نفسها على خطأ في التماهيات، وتعيق الوظيفة الأمومية كوظيفة رمزية للانتقال. ولا يوجد مطلقاً بالنسبة لها صورة أمومية مخيفة! والتي تكون راعية أطفال. شيء ما من نظام انهيار الانتقال السلالي يمكن أن يحدث، فنسل الأم بالطفل يمكن أن يفقد تجاهه، ويمكن ألا يكون أو ألا يكون مطلقاً فيها. وبعدم حدوث الوظيفة الرمزية الأمومية، لن تظل أنثى منجبة.

وبالطبع، تتميز هذه الحوادث الصادمة عن الحنين إلى حالة الحمل المُعاش وكأنها إتمام. يشكل هذا الحنين جزئياً الـ «baby blues» وسيأتي للإصلاح بصورة وهمية، ولمقاومة

خطوط التماهيات. إن حالة «baby blues» التي تكتشفها القابلات القانونيات، وغالباً تفسّر فقط كفشل هرموني، تشير إلى العمل النفسي الذي يستدعي سجل الأمومة، مكان اللقاء ومكان خلق صلة الأم بالطفل.

الأمومة هي فترة نفسية وهي سجل نمطية الصلة حيث يكون كل المحيط «مؤوم» (نسبة للأم) وفقاً لتعبير «دولتو».

الأمومة ونرجسية الصلة

يتعلق الأمر هنا بسؤال العمل الدافعي عن العمل في الأمومة. ولا يمكننا إلا الإشارة إلى هشاشة صلة الأنثى بالأمومة(1)، والضرورة من أجل المرأة في تحقيق ذاتية الدافعي الضروري لحياة الطفولة، إنما ما يمكن أيضاً، في عنف الاقتلاع الذي يصفها، كسب وحل التماهيات المرافقة لخلق صلة الأم بالطفل. إن الضرورة الدافعية التي تجابهها المرأة إذاً تساهم في تأسيس وتكوين الأمومة.

«الأمومة» هو سجل للصلة، للنرجسية بالصلة النرجسية

(1) Cela ne peut être ici développé. Il s'agit de différencier les figures de mère et de femme. Il n' y a pas d'évidence de passage de l'une à l'autre. La maternité n'est pas obligatoirement un destin d'accomplissement de sa féminité pour une femme.

التي تغلف وتحمي اللقاء بين الأم والطفل وجعله ممكناً. هذه النمطية النرجسية تكون في تمايز النرجسية التي تتكون على صيغة العلاقة بالأداة. إن تغيير الأداة وتكوّنها، يحدد أننا على الفور في المنظومة الانتصابية للشخص المعني الذي يكبت شيئاً ما في فترة نفسية غير ذلك التكوين النرجسي ومختلف هو أيضاً عن نرجسية مبنية على صيغة العلاقة بالأداة.

هذه النمطية النرجسية، أسميها «صلة» لتمييزها عن أيّة علاقة بالأداة، وتكون خفية لفترة نفسية «عابرة». ويسمح إسباغ النرجسية على الأداة في التعبير عن الإلزام بنرجسية «غير إسقاطية» تخلقها صلة الأم بالطفل، مغلفة الأم والطفل في هذا النسيج، الأمومي. إن الإغواء لاثنين، الذي يغذي القدرة على إسباغ النرجسية للصلة، هو ذلك الإغواء للفترات الأولى حيث تكون الأم واقعة تحت إغواء طفلها الذي تغويه بدورها. وكلاما يقعان تحت الإغواء المتبادل المؤسس للصلة، خالق لأمومي، لنسيج، لغلاف. إنه يكون النرجسية الملازمة لصلة الأم بالطفل هذه. وينبغي تمييز إغواء الأم للطفل كعابر ـ تأثير مبني على الأم ـ عن المتعة التي ستُلغى في «ما وراء» دافع الشخص بالصلة.

تمر الضرورة النرجسية عبر تفادي الأداة، لحمايته، وإلا سيكون هذا تحت تأثير الدافع والمتعة. فأداة الدافع إذاً ليست إلا جزئية، إنها ليست الأم ولا الطفل، إنما المتعة

الممنوحة (بواسطة الثدي، كأداة جزئية) ومُستقبَلة[1]. وتنبغي عبودية ما، ليس للحليب ولا الثدي، إنما لنظام المتعة هذا المكوَّن للأمومة كـ «عابر». وبنقص في عبودية متبادلة لنظام المتعة هذا المكوَّنة من الصلة، يمنع الإفراط، إذا هيمن، في آن واحد، هذه المتعة، في أن يكون المرء نرجسياً ويوقع صلة الأم بالطفل في الهمجية، لا بل في الجنون. كثيرة هي علامات وأصداء هذا الشغف الخالي من التفاوض، الذي تطرب له الأرائك والذي يعطي لهجة خاصة جداً لنهاية بعض حالات التحليل. «الأبالسة» التي نسألها عند العلاج تعطينا آخر موعد لتوقيع الأعداد لنهاية الترانسفير. ولهذه الصعوبات المرتبطة بهذا الإفراط للدافعية مصائر مختلفة، نعثر على آثارها المؤلمة في جميع الآلام الجمعية. وبصورة خاصة ألم الإمتناع عن الطعام.

وتعد الصلة الجالبة للنرجسية أساسية في خلق أمومي حيث يمضي الطفل والأم في التقائهما. وربما يكون غيابه موجداً للعدم ومع ذلك هزيمته هي شرط بصمته. البصمة التي تسمح بتسجيل بنائي للانتقال من بنوّة الأنثى لكل منهما. بصمة مرتبطة بشرط طمس وعبودية الصلة من أجل أن تكون ذاكرة قابلة للانتقال.

(1) S. Freud, «La découverte de l'objet», in «Les métamorphoses de la puberté» (1905), in *Trois essais sur la théorie sexuelle*, Paris, Gallimard, «Folio Essais», 1987, p. 164-165.

المفارقة الدافعية: مسألة الأداة

أول تساؤل مساهم في هذه المفارقة، هو ذلك الذي يخص صلة الأم بالطفل: لماذا لا تستطيع الأم والطفل أن يكونا أدواتٍ للدافع للعمل في ميدان الأمومة؟

والثاني الذي سيكون خاتمة لهذه الأفكار، هو ذلك الذي يخص نتائج التوظيف الدافعي للصلة، والشدائد التي يمكن أن تنجم عنها. شدائد مرتبطة بالنمطية الدافعية للصلة.

1 ـ صلة الأم بالطفل:

لا يتضمن ميدان الأمومة، لكي يكون، غياباً للسجلات النفسية الأخرى للموضوع. ويكون مختفياً عنها في هذه الفترة النفسية الخاصة لولادة كائن صغير وعلى أمل توفير له الضرورة الحياتية، ضرورة الرسو المؤنسن في استقباله.

ويُنتظم سجل صلة الأم بالطفل هذا بصورة لاشعورية، من أجلها ومعها بل ورغماً عنها، ويخشى من الوقوع في نغمية «تختلف» عن العلاقة بالأداة لتكون معترفاً بها.

وإذا كنّا في موقع بجانب الطفل، فينبغي تذكر ما سماه فرويد غطاء الأداة[1]، الثدي، كأداة جنسية، «هو خارجاً عن الجسد»، فهو ليس الأم.

---

(1) Trois essais, op. cit. , p. 164-165.

ليست الأم هي الثدي، إنها تشكل أداة حب بواسطة الطفل عندما تضيع أداة الدافع، لصالح «تصور كلي للشخص الذي يُعزى إليه العضو الذي يمده بالإشباع». ولعل فقدان الأداة للدافع هي التي تسمح في تكوين الأداة من أجل الرغبة. وفي هذا الاتجاه، يختفي أي تماهٍ للأم لصالح استثمارها[1]. الاستثمار الذي لا وجود له، بلا شك، بدون علاقة مع «النرجسية اللامحدودة» والتي تقتضي، وفقاً لفرويد، في كتاب «ركود في المدنية»، تدخلاً للأب لإنقاذ الطفل من الغرق في «الشعور المحيطي».

إن تلك الفترة النفسية، الأمومة، والتي حدودها النرجسية هي الحدود الصادرة بعبودية صلة الأم بالطفل، هل هي محط جميع الأخطار؟ أو، الأمومة، كصلة ومكان للإغواء النرجسي، هل يتميزان بكبت ملزم بالشدة الدافعية للاستثمار وعدم القابلية للتساؤل؟.

ولن يبقى من العلامات والآثار ووجودها المؤسِّس كصلة، إلا ما أشار إليه فرويد كاستثمار، الإغواء على سبيل المثال، إنما على نمط سلبي. فعلامات وجودها المعتمدة بالاكتشاف الفرويدي قابلة للتحدث عنها. إنما نوع من طريق مسدود مقام على ما لهذه الفترة من خلق نفسي ونرجسي.

---

(1) Cf. M. Tort, «Identification réservée au père», in Fin du dogme paternel, Paris, Aubier, 2005 p. 99-100.

ويبقى السلبي وحده كأثر لهذه المنظومة النفسية الأساسية.

وسيكون الافتراض الذي سأصغيه: أن ما يُعتبر ويُترجم كخطرٍ جداً - والقصد هنا، الوجه السلبي للصلة العائدة على الإفراط الدافعي - بعيد عن تحديد تكاملية الأمومة، ويراعي المصائر الممكنة لهذه الصلة إذا لم تتحول إلا علاقة.

الأمر منوط تماماً هنا مع فرويد، في تمييز الأداة الجزئية لدافع جزئي جنسي، عن الأداة المفقودة. فالأم، كأداة حنان، هي المضامن للإشباع العشقي، لمتعة موجودة ومتجددة الوجود. والشيء الجنسي ليس من جانب أداة الحنان التي هي الأم - عدا عن الترجمة المحرمة للإشباع (كتحول ممكن) - إنما من جانب ما تضمنه الأم بأن هناك ثدي، ومتعة للإشباع يعنيها الثدي في نموذجية عملية الإشباع الهاجسي.

وبتأمل جانب الأم، يمكننا، طبعاً، الاعتقاد ومعرفة أن المرأة التي تصبح أماً، هي في ميدان العلاقة! «يمكن اعتبار المرأة كخليقة إنسانية»(1) لكن هذه المرأة لا تستطيع، في الالتقاء مع الطفل، أن تقوم باقتصاد هذا السجل غير الإسقاطي، لتخلق الصلة الأمومية، الصلة المنرجسة لأنها تنرجس هذا الالتقاء وتكوّنه بمتعة تُعطى وتُؤخذ. هذه النرجسية، هي نرجسية الصلة وليس الأداة.

---

(1) S. Freud, «La féminité», in Nouvelles conférences sur la psychanalyse, Paris, Gallimard, «Idées NRF», 1932, p. 177-178.

ولعل مفهوم الأداة ـ ينبغي الإشارة أن الأمر منوط هنا بأداة الدافع ـ لا يمكنه أن يعرض التلقي الخاص إلا بكونه غلافاً أمومياً، بالنسبة للأم والطفل، محاطان كلاهما بهالة هذا المدى، كنوع من تعبير جغرافي للصلة. وبهذا الشرط ـ بألا توجد أداة في هذا الميدان مستثمرة بصورة دافعية ـ توجد، مرحلة الأمومة، وتأخذ وتكوّن، كسجل للصلة النرجسية لثنائي الأم والطفل. وكنايات الغلاف والنسيج التي غالباً ما تتوارد غالباً للتعبير عن برهان هذه الصلة، توحي بما لا يمكن إدراكه إلا فراغياً وليس في علاقة الأداة. ولعل هذا الفضاء الأمومي، أو جغرافية الصلة، هو أرض الاستقبال للقاء الأم بالطفل.

فالاحتواء والاستقبال، لا يعنيان المتعة ولا الافتراس[1]، إنه في توظيف واستثمار هذا الاستقبال، وكذلك متعة العطاء والأخذ، تحصر الأم وتحتوي الدافع الملازم للحياة، ولحيوية الكائن الإنساني الصغير. والأمر منوط، بالنسبة لها، ليس فقط بتهدئة دوافعها الخاصة ودوافع طفلها[2]، إنما أيضاً بوضعها في خدمة نرجسية الصلة الأمومية.

---

(1) Cf. D. Guyomard, «Pourquoi les mères ne mangent pas leur bébé?», in L'archaïque du lien et la mémoire du corps Pour ouvrage collectif : Invention du féminin, Campagne première, 2002.

(2) Cf. Lina Balestriere, Freud et la question des origines, Bruxelles, de Boeck, 2e éd., 2003.

إن مسألة التحويل الضروري لـ «حنان فائق» توجد لدى فرويد على هيئة وشاية عن شدته: «بالتأكيد، سيكون إفراط الحنان الأهلي مؤذياً، ويسرّع النضوج الجنسي، وأيضاً لأن «تدليل» الطفل، سيجعله عاجزاً في حياته المستقبلية عن الاستغناء عن الحب، أو بإرضائه بأقل من كمية كبيرة من الحب»[1]. فالإفراط يلاقي استحالة الحد. وهو يذكر في آن واحد الوجود الضروري للدافع في قلب أي استثمار، إنما أيضاً وجود الخطورة لما هو ملازم له، بحيث لا حدود لسلطته.

ويبدو أن الأمر هنا يتعلق بتثبيت لهذه الصيغة لمنظومة الصلة، وبهذه النمطية من الإشباع أكثر مما يتعلق من تسريع للنضوج الجنسي. ويستحوذ الميدان الأمومي، كمكان نفسي لهذه النمطية، الأهل والطفل في هذا النمط من الحب غير المتحول وغير الخادم. ولا يمكن للأهل أو الطفل الاستغناء عن هذا النوع من الإشباع الذي هو مصدر لأي قدر رجعي.

وبدلاً من تسريع النضج الجنسي، ألا يكون بالأحرى هذا الإفراط من الحب مكاناً لمتعة تمنع أي تحوّل من عدم نيّة وضع حد للتبدل وللعلاقة؟ وربما لا يوجد تحولاً ممكناً في هذه الحالة، وإنما تثبيتاً لهذه الصيغة من الإشباع.

(1) S. Freud, op. cit., p. 166 et 167.

ويبدو إذاً، من الضروري تمييز إغواء الأم للطفل المنرجس، في قلب الأمومي، والخالق لنرجسية الصلة، كإغواء متبادل عابر، عن متعة هذا الإغواء التي تتلاشى في «ما وراء» الدافع، أيّة إمكانية لتحول الصلة. «الضرورة النرجسية تمر، في ميدان الأمومة، عبر تفادي الأداة» وبالفعل، الأم أو الطفل، على اعتبارهما أدوات، قد يكونان أدوات متعة.

فرويد الذي راقب الإفراط في علاقة الأهل بالطفل ملياً، يبدو وريثاً لـ «أمومة» غير مخدّم. وقد صادف في علاجاته ذلك عندما ينبثق عن صيغة شروعية، ولا يشبع من التكرار في الترانسفير. إذاً يمكن أن يكون ذلك وأيضاً التبدّل للصلة المحمولة على الإفراط. والشغف في ذلك هو الصدى الممكن والعلاقة الإضافية للنمطية. نمطية هي في آن واحد ذاكرة وإمضاء لعلاقة لا حرمانية. للأمومة. أمومة طالما أن الأمر متعلق بنمطية الصلة وليس بالأم.

والتحول، المرتبط بعبودية نفسية، يدعو الأداة إلى صيغة الخسارة محدثة رغبة في نفس التحرك. وخسارة الأداة، التي تكون أيضاً ظهور الرغبة، تنقذ الأداة من الدافع، وتحميها من تأثيرها.

الخلاصة، قد يكون إذاً محرضاً بلا جدوى، في قولنا أنه لا توجد أداة لامرأة في وضعية أمومية، ومع ذلك بواسطة هذا الانحراف كنت أريد الاقتراب من مسألة الأداة، بتمييز ما لا

يمكن أن يكون إلا أداة الدافع في الصلة الأمومية عن الأداة في علاقة الأداة.

وسؤالي الذي يخص الأمومة هو التالي: كيف تتكون هذه الصلة المحاطة بالرعاية، وهذه القدرة «المؤومة» (نسبة للأم)، والمستقبِلة والمطمئِنة والمعشِشة كما كان الأمر في فترة الحمل؟

وكيف تحمي الأم طفلها من الشطط الدافعي الذي هو أداته من المصادر نفسها للحياة؟ لا يتعلق الأمر بعلاقة الأداة كطور محدِّد، ولا فصل أو خسارة الأداة في هذا السجل للصلة التي تعيّن الأمومة.

قد يمكننا القول هنا، أن الدافع نحو الأمومة ضروري وخطِر وينظم النرجسية التي ليست للمرأة الأم، وليست للطفل، إنما لثنائي الأم والطفل.

نرجسية الصلة إذاً، والشطط الدافعي، الذي على كل امرأة أن تجابهه في فترة خلق هذه الصلة، والحياة تفرض عليها، من أجل إنجاز حماية الطفل هذه، ألا يكون أداة، لأنه قد لا يستطيع أن يكون كذلك إلا بدوافعه.

ومن الضروري إذاً، أن التغرير والانحراف الدافعي يرسمان التحرك نحو التسامي، التسامي الإلزامي كقدر لدافع الافتراس على سبيل المثال. ويتعلق الأمر بالتحول الذي تمر آلياته اللاشعورية عبر صيغ صلة معينة، تبدو صورتها الفورية لي، هي التجربة الهاجسية للإشباع. ووفقاً لصيغة الصلة هذه،

تُخلق الملامح المستثمرة بواسطة الدوافع في الثنائية القطبية للأم والطفل، والتي تذكر أن عبودية الإغواء المتبادل يفرضها الطفل والأم سواء بسواء.

ولنختتم الحديث ببضع كلمات تتعلق بالمفارقة الدافعية وإفراطها المحتمل:

2 ـ إفراط وجنون الصلة: مصائر محتملة لـ «الأمومة»

وبقدر الإفراط، ، يؤدي غياب ضغط متعة الأخذ والمنح إلى إهمال الصلة في عدم تبلور الشخصية والخمول. والدافع هنا إذاً، في إفراط سلبي من العدم واللامبالاة. ومهما كانت أسباب ذلك ـ حِداد أو اكتئاب صامت ـ تعبر النساء أحياناً عن ارتباكهن بعد ولادة الطفل: «كان لدي شعور بحضور ما حصل، ولا أحس بشيء».

ويكفي الانكسار، وتمزق نسيج الحماية الأمومية، التي تحدث الصلة أو لا تتمكن من الحدوث. انكسار يكون أيضاً في التماهيات الحاملة لهذه القدرة المؤومة (نسبة للأم)، وأحياناً غيابها. ويمكن للانكسار أو الغياب أن يؤرجحا المرأة التي تصبح أماً، في فراغ تصورات الصلة، وفي هذه «الأمومة» التي قد يتلقاها، هي وطفلها. إنه إذاً من هذا المكان المنقوص يمكن أن ينبثق إيعاز، مرتبط بجعل الأمومة مثالية دون دعم تماهوي، يمنع ضمان الانتقال. والأم، بصورة مفترسة في ما فوق الأنا،

تمنع من نشوء الأم، ومن «الولادة». والدافع في عمله ضمن هذا التشكّل يمكن أن يُدمَّر، وعندما ينعدم مستقبل هذه الصلة، لا يمكن تحقيق الفصل أو التمايز.

إن السمو الذي تفرضه المثالية للصورة الأمومية، يُنزل يداً قويةً على هذا الإيعاز فوق الأنا، ويفخخ التحرك الضروري للسموية. السمو المجمِّد لهذا التحرك لا يمكن أن يُتخذ إلا في انفرادية الشخص المعني. ويكفي التفكير بهذه المقولات التي تتعلق بالتأسيس، والعائد إلى التصويرية في تناقلية النسل، وبالأم التي تقسر أي حب، وهي الملجأ والعزاء من أجل إدراك قوة الشعور بالذنب لهذا الامتثال الملزِم. ولعل إضفاء القداسة هذا يُحدث، دون شك، ثغرة في مقاومة التهديد الدافعي الذي يمكن أن يحمل بالتأكيد أكثر من إغراق لـ «الأمومة» في الدمار. ومن شدة إلى أخرى، المقولة قاهرة وملحة على أمومة منقولة وفقاً لمعايير السمو لئلا تقع في الهمجية المهدِّدة دوماً.

ويكمن الجنون الأمومي في خيبات الانتقال، وفي عدم عبودية صلة الأم بالطفل وقد روت قصص هذه الخيبات أو جنون الصلة، نساء وبنات وأبناء عندما استذكروا أو استذكرن العلاقة الدافعية دون توقف والتي يحيونها مع رفيق أو قريب. ويحمل هذا الجنون الدافعي أثراً لتعجب لا حدود له. إنه يفترض أيضاً ذاكرة إشباع يمنع تكرارها الحنين والذي هياجه المتواصل، في الكراهية كالحب، يضع الشبقية مكان السكينة.

ولا ينقص هذه الذاكرة التفوه بالكنايات الفموية والشرجية. ومن ناحية أخرى، من قاوم استخدامها للتعبير عن صلة الحب والغضب؟ ذلك يشكل جزءاً من جميع قصص الحب، والتي تبدأ بالحب الأمومي. إنما هنا تُمَثَّل الدراما، التي يمكن أنا تكون دراما الجنون، حين ينعقد تأثير واقع جسد الطفل ودون كناية هذه المرة.

كثير من المرضى، والنساء أكثر من الرجال، يحدثوننا عن المذلات التي عانوا منها مثل: «تجعلني أمي أبلع ما تقيأت» أو: «كان علي أن ألبس على رأسي سروالي المبلل». . . ودون التعليق على مستقبل أنوثة هؤلاء الفتيات الصغيرات! لم تتمكن العبودية النفسية للشطط الدافعي من تأمين لا الهزيمة ولا التحول، وربما في آن واحد بقية الصلة المنرجسة، أو إمضاء عدم وجودها. وهناك الباقي الذي أنهكت شبقيته كل إمكانية للتمييزية، وكل فصل للجسد:

وما يصنع الجنون المحتمل للصلة ـ كالاستحواذ أو كلية القدرة ـ مرتبط بفرض دافعي جزء منه مأخوذ مما فعلته الصلة. في الأمثلة السابقة أعلاه، هذان المنحدران للجنون الأمومي معاشان كإيعازات يقوم بها الأم والطفل سواء بسواء. إيعاز لا يجب ولا تستطيع هذه الأمهات مقاومته. إنهن تحت تأثير دافع لاشعوري، إنما في الاتجاه الذي يرضي هذا الدافع. إنهن أداة الدافع، ومدمّرات كأمهات منفردات. وهنا النزعة

نحو السمو تمهد لسلطة الأنا الأعلى غير المتآلف، بواسطة تصورات مؤنسنة للأمومة. أنا أعلى يُعد إيعازاً لتشكيل «الأم» المتكاملة، ويجعل من المستحيل على المرأة أن تكون أماً لطفلها. ويلعب تماهي الأنا الأعلى دوراً ضد الإمكانية الذاتوية للصلة ويمنعها. كما لو كان ينبغي حماية هذا التصوير الأمومي الذي تفرضه نرجسية مثالية الأم، والعسير على الذاتوية. وبالنسبة لهؤلاء النساء، تكوّن هذه المثالية الأمومية بلا صلة حية بذاكرة التجربة الأمومية.

ويمكن للحب «الشمولي» أيضاً أن يُترجم بعدم قول لا، وإرادة الرضى بكل شيء، وغزو كل شيء أيضاً، لدرجة أن الآخر، الطفل، ليس له فضاء أو جسدٌ خاصٌ به. والترتيب الدافعي الذي لا يستسلم للشطط، يمكنه أيضاً أن يعبر عنه نفسه خير تعبير بوضعيات اليقين، وبالمعرفة من أجل الآخر، وعوضاً عنه: «أنا التي تعرف من أجلك».

إنها دوماً المقولة المتفوَّه بها للأمومة التي تمارس قدرتها الكلية صيغة من الإيعاز لإعلاء هذه الصورة الخالية من التصدع، والمنفصلة عن الحب الأمومي.

وتكمن آثار هذا التأثير الدافعي في الخيال اللاشعوري لأيّة أم، ولأي قريب، إنما من يسأل عيادتنا للتحليل، هو الذي يربط، عينياً، الأمومة بهذه القدرة الدافعية. والأمر منوط بمقاربة تأسيسية. وقدرة دافعية والتي أقدارها أحياناً تستطيع

الانتقال إلى الفعل وإلى الجنون، بإتباعها القنوات التماهوية لكل امرأة بالأنثى وبالأمومة.

وفي استذكار للمُعاش الأمومي المؤنس بالتنقلات والتحول، برهنت أم على أن الحاجة التي لا يمكن كبحها في حماية ابنها يمكن أن تكون مصدومة بالواقع (حوادث، أمراض)، إنما أيضاً بواسطة الاكتشاف أنها تملك هذه القدرة الافتراسية في خيالها اللاشعوري، والذي تشهد به أحلامها كما يلي: «تناولت منه قطعة لحم، هناك حيث هي طرية، من داخل الفخذ». . . ، وتعبر مريضة أخرى كم أن لحم ابنها الأخير مفزع في حلمها. وكم هي موحية أيضاً قصص دوافع رمي الطفل من النافذة، أو ضربه بسكين، وتخيلات وهمية شعورية لدى أمهات حريصات ووادعات، وينذهلن في كشف هذا العنف في أنفسهن.

إن إلزام حماية صورة الأم موجودٌ في المقولات التي تقترح مخططات لتماه مع أمومية مثالية. وهذا يؤكد ترقية الصورة التي يمكن أن تساهم في سحق التحرك التساموي الذي لا يمكن أن يهزأ إلا بكل إنسان أو إنسانة منفرد.

وعندما لا تُحمل ذاتية الأم بواسطة الانتقالات، أي بذاكرة الصلات أو اللقاءات، تُنتزع من إنسانيتها، وتقع في الهمجية للأنا الأعلى المفترس، في شغف «إضافي»، في جنون نرجسية لا حدود لها.

الفهرس

I ـ مقدمة 5
القبلات 5
II المداخلة الثانية 29
إنسانة أخرى: بشغف: شائعات «الأم الطيبة بما فيه الكفاية» . 29
III «حكايات على سبيل الذكر» على الأريكة 51
IV الأم مجنونة بما فيه الكفاية 87
V الجنون الأمومي كوظيفة ضمن العائلة 118
VI هل الجنون الأمومي مفارقة؟ 131
أي علاقة تواصل الأمومية بالجنون؟ وإلى أي وضعية تباينية
تدعى المرأة لكي تكون أماً؟ 131
الأمومة ونرجسية الصلة 136
المفارقة الدافعية: مسألة الأداة 139
1 ـ صلة الأم بالطفل 139
2 ـ إفراط وجنون الصلة: مصائر محتملة لـ «الأمومة» 146

850/4/2009

جنون الأمومة الطبيعي

«من قصص الأمثال: حين وجدت إمرأة قبيحة جداً، عشاً لعصافير صغار، اقتربت منه، يغمرها الفرح. كانوا بعمر الطيران وإن لم تتمكن من الإمساك إلا بأصغرهم. فأخذته بين ذراعيها، تغمرها البهجة وعادت إلى كوخها، وما أن بدأت بالنظر إليه حتى راحت تقبله. وبسبب حبها الجارف الذي كانت تكنّه له، قبلته وأدارته، ضغطت عليه بشدّة حتى جعلته يفارق الحياة.

تستهدف هذه الأمثولة أولئك الذين يجلبون مكروهاً لأنفسهم لعدم تربية أولادهم بصورة مناسبة».

ليوناردو دافنشي

ISBN 978-9953-515-52-6

9 789953 515526

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع